حكم وحكمة

توفيق

فصول قصيرة أذيعت من إذاعة الكويت، يتضمن كل
حكماً شرعياً هاماً مع بيان الحكمة والفائدة من شر



بقلم
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

حُكمٌ .. وحِكمة

فصول قصيرة يتضمن كل منها حكماً شرعياً هاماً
مع بيان الحكمة والفائدة من مشروعيته

تاليف

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي





دمشق - سورية

الطبعة الأولى

جمادى الثاني ١٣٩٢ – تموز ١٩٧٢



حُكمٌ.. وحِكمة


شباب
النادي الشبابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

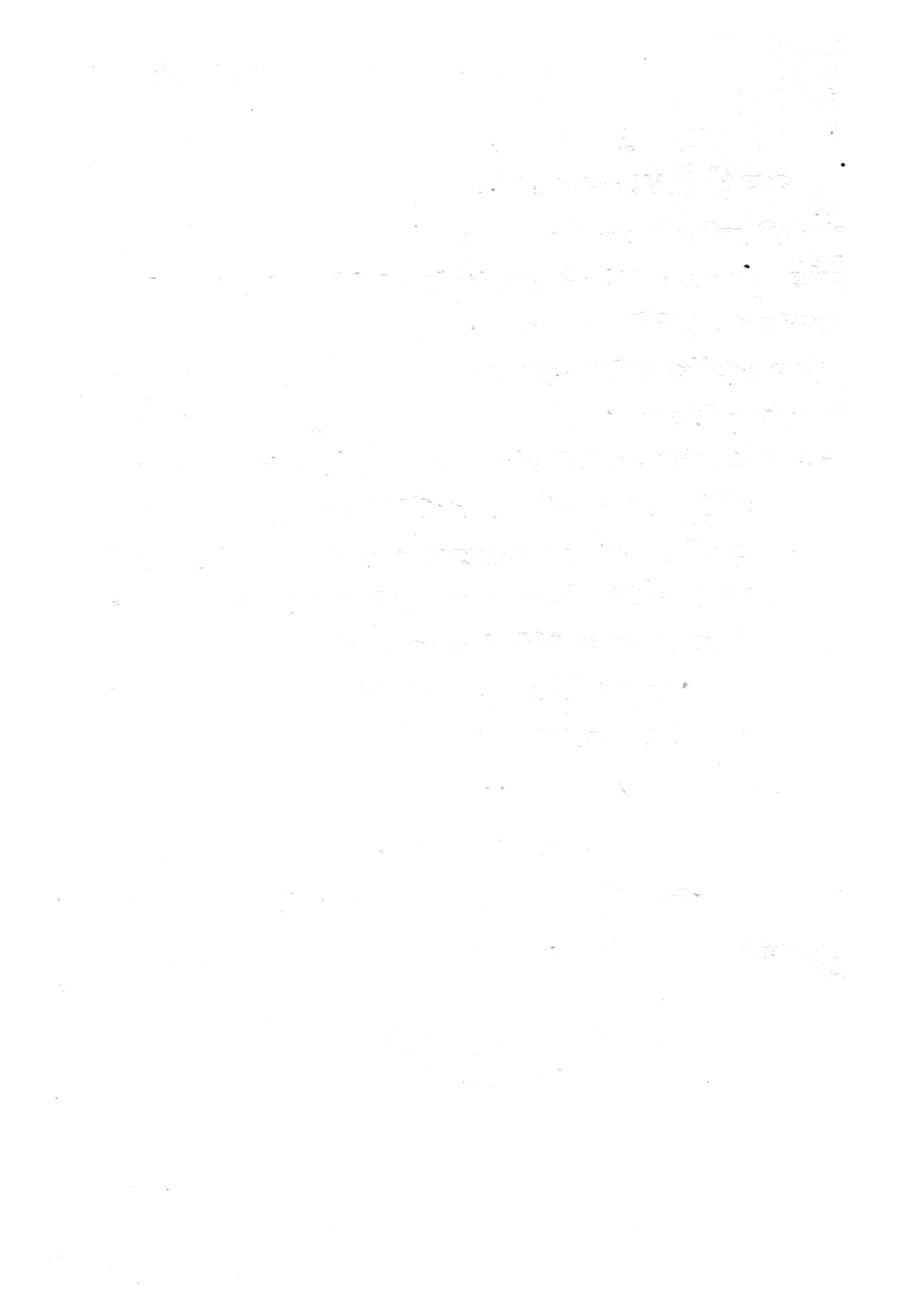
* * *

وبعد ، فهذه أحاديث قصيرة كتبتها لاذاعة الكويت ، تحت عنوان حكم وحكمة ، قوام كل حديث منها ذكر حكم شرعي يستند الى آية من كتاب الله عز وجل أو حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اتباعه بالحكمة من مشروعية ذلك الحكم ، وقد حرصت على أن يأتي شرح الحكمة منه مبسطاً واضحاً ، ليس فيه من الطول ما يبعث على الملل او يتشعب معه الحديث ، وليس فيه من الاختصار ما يظل البحث معه مغلقاً لم يستوعب العقل منه حاجته وغرضه .

وقد استجبت لراي بعض الاصدقاء في نشرها ، على قلتها واختصارها ، أسأل الله تعالى أن يمتعنا بمرضاته ويقينا من حظوظ انفسنا ، ويجمع لنا بين خيري الدنيا والآخرة ، انه على كل شيء قدير .

دمشق في ١٨ محرم ١٣٩٢
٣ آذار ١٩٧٢

محمد سعيد رمضان البوطي



الإيمان بالله وسر ضرورته

●

قال الله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فان لله ما في السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيما) .

هذه الآية تتضمن أخطر حكم تكليفي خاطب الله عز وجل به الناس جميعاً في مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهو الإيمان بألوهية الله وحده : الإيمان بأنه وحده الخالق ، وهو وحده الضار والنافع ، وهو المسبب لأسباب الكون جميعها ، وهو الذي أودع في الاشياء طبائعها ورتب لها وظائفها ، أي أنه هو الذي « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وهو الذي يجمع الناس كلهم ليوم الجمع الذي لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

ولا يخرج عن عهدة هذا التكليف إلا طفل صغير ، أو فاقد لرشده وعقله ، أو إنسان عاش في بيئة لم يتسامع فيها باسم الدين ،

ولم يلقه فيها مرشد أو نذير . فهذا وأمثاله يصدق عليهم قوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

ويتساءل كثير من الناس عن الحكمة من هذا التكليف الإلهي العام . ويسأل البعض : أي حاجة للخالق سبحانه وتعالى في أن يدين له عباده بالولاء والإيمان ، وأي ضرر يناله لولم يفعلوا ذلك ؟

والجواب أن منفعة الإيمان بالله تعالى والدينونة له ، ليست عائدة إلى الله عز وجل ، حتى نعجب من ذلك ونتساءل عن نوع هذه المنفعة وما يقابلها من ضرر . وإنما منفعة الإيمان بالله عائدة إلى الجماعة الإنسانية ذاتها ، كما أن ضرر الكفر به عائد إليها هي أيضاً .

وبيان ذلك أن الانسان مفطور على جملة من الصفات والطبائع التي لا بدّ له منها ، كي يتمكن من عمارة الكون وتسخيره والاستفادة منه ، مثل صفة العقل وما يتفرع عنه من الإدراك والعلم ، والأنانية وما يتفرع عنها من الأثرة وحب

التملك والذات ، والقوة وما يتفرع عنها من الجنوح إلى السيطرة وحب العظمة والجاه .

وهذه الصفات لا يمكن أن تؤدي عملهـــا الصالح في عمارة الكون على نحو تسعد به الإنسانية إلا إذا كانت هناك رقابة عليا على هذه الصفات وكان صاحبهـــا مستشعراً وجود هذه الرقابة .

إذا ان هذه الصفات والطبائع إذا تُركت وشأنها كانت منبعاً للشرور وأسباب الشقـاء أكثر من أن تكون سبيلاً للخير والسعادة . فصفة العقل أو العلم تنقلب إلى شبكة تصطاد بها كرامة الانسان وحياته ، ومزية القوة وأسبابها تنقلب إلى عواصف هوجاء تضرب الجماعـات الانسانية ببعضها ، لتنحسر العاصفة بعد ذلك عن ضعاف مستعبَدين وأقوياء متسلطين متألهين !..

وليس الطغيان البشري في حقيقته إلا نتيجة طبيعية لتحرر هذه الصفات من الانضباط بأي قيد . حيث يذهل صاحبها عن وجود رقيب يلاحظ كل تصرفاته ويدخر له العقوبة الصارمة

على كل ما لا يرضى عنه من أنواع السلوك والصفات ، فينطلق على سجيته يفعل كل ما تشاء له نفسه وتهواه .

وليس الاستخذاء البشري وعبودية الانسان للانسان إلا نتيجة طبيعية لهذا التحرر ذاته ؛ فان هذه الصفات عندما تنطلق على سجيتها ، يتصارع أربابها في حلبة هذه الحياة ، فيفوز أولئك الذين فاقوا غيرهم في القوة وأسباب السلطان ، ويقع الآخرون بالضرورة تحت حكمهم وسلطانهم . ثم إنهم يستسلمون لما يقتضيهم الحال من قهر وذل قد ينتهيان بهم إلى عبودية مطبقة بسبب أنهم ذاهلون عن وجود إله خالق قاهر يقضي في خلائقه بما يشاء ولا معقب لحكمه وقضائه .

ولو أن هؤلاء المستعبَدين وأولئك الطغاة المستعبِدين ، أدركوا وجود الإله وصدقوا كلماته وآمنوا برسله ، لأحجم الطغاة عن طغيانهم وتحرر العبيد عن العبودية لأقرانهم .

لقد حمل فرعونَ كفرُه على أن يمدَّ غاشية بطشه وسلطانه على سائر رعيته حتى أحالهم إلى عبيد أذلاء له ، وحتى قال سحرته وهم بصدد إظهار براعتهم السحرية أمام موسى عليه الصلاة والسلام:

(بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فقد ساقهم مشاعر العبودية له إلى إنكار ذاتهم وإسناد كل غلبة أو توفيق يحرزونه إلى عـــزة فرعون وسلطانه .

فلما دخل الإيمان بالله قلوب هؤلاء السحرة ، وأيقنوا أنه وحده الإله النافع الضار المحي المميت – انقلب ضعفهم قوة ، وانطلقوا متحررين من أسر عبوديتهم الزائفة لوجل مثلهم ، وعادوا يردّون إلى فرعون إنذاره وتهديداته في شمم وعزة وإباء :

(.. لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) .

وإذاً . فسر ضرورة الايمان بالله ،هو ضرورة خروج الناس من عبودية بعضهم لبعض ، ودخولهم جميعــاً في العبودية المطلقة لله تعالى .

وليس من سبيل إلى تحرر الانسان من أسر العبودية والذل إلا سبيل العبودية الصادقة لله عز وجل .

سبيل وحدة المسلمين

●

قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . .) الآية .

هذه الآية العظيمة من كتاب الله تعالى تقرر أهم حكم من أحكام المجتمع الاسلامي . وهو وجوب كونه متحداً متضافراً وتضع لهم أقوم السبل الى ذلك ، وهو الاعتصام بحبل الله تعالى أي التمسك بنظامه وشريعته .

ولسنا بحاجة إلى استجلاء الحكمة من ضرورة وحدة المسلمين ، فقد رأينا فائدتها العظيمة يوم كانت الامة الاسلامية متحدة متضامنة ، وذقنا الآلام الجسيمة يوم تصدعت وحدتها وزال تضامنها .

ولكن ما هي الحكمة من أن يكون الاعتصام بحبل الله هو السبيل إلى الوحـدة، حتى كانت ضرورة الاعتصام به هو الأمر الاول منها في ترتيب الآية وحكمها ؟

الحكمة من ذلك أن الامم لا تتحد إلاّ على مبدأ سبق أن آمنت به ، ولا تلتقي إلا على محور يجذبها ويجمعها من شتات . فان لم يتحقق الايمان بالمبدأ الواحد أولا ، فلا سبيل إلى قيام الوحدة ثانياً . وإذا لم تتركز نقطة المحور في القلب ، فهيهات أن يحيط بها طوق الدائرة من الأطراف .!

جرب أن تعمد إلى جماعة من الناس تتجاذب أفكارَهـــا مبادىء وقيم مختلفة متعارضة ، فهي بينها اوزاع وأشتات .. ثم ادعها ما شئت الى الوحدة والتضامن وحذرها ما شئت من بلاء الفرقة ومصائبهـــا ، أفتسمع لندائك من مجيب ، أو تعثر لنصائحك على أي أثر ؟

بل جرب أن تقبل بنصائحك هذه الى أمة لا تطوف بها أفكار وقيم متخالفة ، ولكنها لا تمسك أيضاً باي مبادىء او قيم تلتقي عليها ، فان دعوتها الى التضامن إنما يكون كدعوة ماء

سارب على وجه الارض الى ان يجتمع ويتكاثف فوق بعضه دون ان يحصره أي حوض . !!

لو دعا محمد ﷺ عرب الاوس والخزرج من أهل المدينة ، إلى الحب والتآلف والاخاء ، قبل ان يغرس في أفئدتهم عقيدة الايمان بالله واتباع سنته وهديه - لذهب دعاؤه لهم أدراج الرياح ولضلت كلماته - على تأثيرها وبلاغتها - عن أسماعهم ولضاعت وسط معاركهم المحتدمة وحروبهم المستعرة .

ولولا وحدة العقيدة والمبدأ لما تآخى مهاجري وأنصاري ، ولما انطوت مكائد اليهود من المدينة الى الابد ، ولما ولت هاربة من وحدة الذين ظلوا يستمتعون من قبل بنيران خصوماتهم وأحقادهم أحقاباً من الزمن .

وإذاً فلا بد لاقامة صرح الوحدة والتضامن ، من أساس العقيدة والمبدأ اولا . فاذا توفر هذا الاساس تكامل البناء من فوقه تلقائياً ، وكان ارتباطه به كارتباط النتائج بالمقدمات . أما اذا لم يتوفر هذا الاساس ، فان من شأن مختلف الميول والمسالك والاغراض أن تعصف بالافكار عن سبيل الوحدة والتضامن وتشردها في فجاج تائهة متخالفة .

وانظر الى هذه الحقيقة كم هي واضحة في قوله تعالى :

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

ولعلك تقول : فاذا كان أساس المبدأ الواحد ، هو المرتكز الاول لوحدة الامة ، فما الفرق بين مبدأ وآخر وما هي أهمية المبدأ الالهي في هذا المجال ؟

والجواب انك اذا تحولت عن المبدأ الالهي الذي سنه الله تعالى للبشر ، وحملهم عليه طوعاً او كرهاً ، عادت المبادىء الوضعية الاخرى قيماً فكرية قابلة للنظر والبحث ، وما من صاحب بصيرة ورأي إلا وهو قادر على أن يردها بمثلها او خير منها . فهي إذاً منبع خلاف وشقاق أكثر من ان تكون سبيل وئام ووفاق . ولم يكن لبلاء هذا العالم أن يستشري بين أممه وأقطابه لولا المبادىء التي تتصارع فيه ولا تكف عن النفخ في ناره .

فلذلك لا يُصلح أمرَ البشر إلا المنهج الذي وضعه لهم رب البشر جل جلاله .

ذكر الله
وأثره في حياة الإنسان

●

قال الله تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعـــاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين)

هذه الآية تقرر حكماً من أهم الاحكام الاسلامية التي يبدأ غراسها في القلب ، ثم يتفرع أثرها في عامة قضايا المجتمع .

ذكر الله تعالى ..!! أهم منطلق تربوي يضعه الله تعالى لحياة عباده في الارض ، وهو ليس بسبسة لسان ولا فرقعة سبحة ولا قفزاً او التواء على الأرض ، وانما هو أن يظل القلب يسبح في طائف من مراقبة الله تعالى وتصور أنه عز وجل يطلع على كل غيب مجهول وضائع مستور ، وأنه لا مناص من وقفة حساب بين يدي هذا الإلـه العظيم على كل جناية وعصيان ! .

هذا هو الحكم الذي تقرره هذه الآية وآيات كثـــيرة في كتاب الله تعالى .

ولكن ما الحكمة ؟ .. وما وجه الحاجة الى ذلك ؟ .. وهل هي حاجة الله او العبد ؟

الحكمة .. ان حياة المجتمع الانساني لا تسير على نهج سوي متناسق ، إلا اذا استشعرت أفئدة الناس رقابة الله عليها ، وتذكرت في جنب ذلك انه ما من حق يضيع ولا واجب يطوى .

وتفصيل القول في ذلك أن هذه الحياة الدنيا من شأنها أن تقبل الى الانسان باحد وجهين : أحدهما وجه من النعمة بكل وسائلها وأسبابها ، ومن شأن الانسان إذا ما رأى من الدنيا هذا الوجه أن يتيه في سكرة النعيم ويتملكه طغيان الترف ، فلا يحسب حساباً لتقلبات الدهر ومصيره ، ولا يلتفت إلى من حوله أو الى ما ينبغي ان يكون من شأنه تجاههم .

والآخر وجه من البؤس والمصائب والآلام . ومن شأن الانسان إذا ما أقبلتَ اليه الدنيا بوجهها هذا ، أن يعتصر قلبه الهم ويأخذ الكرب بحلقه وان ينظر حوله فلا يرى الحياة إلا سجناً مفعماً بالمصائب والآلام ، من حيث هي للآخرين الذين

من حوله مقصف لهو ومرتـــع أنس وأداة نعيم . وربما فكر ونظر .. فلم يجد دواء لآلامه خيراً من ان يحـــكم على نفسه بالاعدام وينهي أيام حياته على الارض .!

فما هو الدواء الذي من شأنه أن ينبه ذلك السكران من سكر ترفه ونعيمه، ويطلق هذا المعذب من سجن بلائه وضيقه؟

أما سنة الحياة فلا سبيل إلى تبديلها .. وستظل تبلو الناس بهاتين التجربتين . وإنما الممكن هو البحث عن سبيل للتغلب على آفاتها. فما هو السبيل ؟

لقد عجزت أبحاث الفلاسفة والمصلحين عن اصطنـــاع أي علاج أو وسيلة من شأنها ان تضبط نعيم الحياة عن التحول الى حالة من الترف والجنون ، وأن تضبط بلواءها عن التحول الى اختناق و كرب لا يطاق

ولكن الوسيلة الناجعه الوحيدة هي اتبـــاع الوصفة التي خاطب الله بها عباده جميعاً .. الوسيلة هي ربط القلب بذكر الله تعالى ، فان من شأنه أن يجعل حياة الانسان في نجوة عن أن تقع ضحية لسكرة نعيم أو ضحية لمصاب أليم . ذلك أن

ذكر الله عز وجل يورث القلب أثرين مختلفين ، فهو يورثه الطمأنينة والرضى ويملؤه بالرهبة والخشية . أما الطمأنينة فعلاج لمن أدبرت عنه الدنيا وابتلته بمصائبها ، وأما الخشية فعلاج لمن أقبلت اليه ورقص من حوله نعيمها .

وانظر الى هذه الحقيقة كيف يجليها كلام الله عز وجل :

يقول الله عز وجل مرة : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

ويقول مرة أخرى : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً)

أما طمأنينة القلب فتأتي من يقين المؤمن الذاكر بأن الدنيا بكل ما فيها ليست مما بعدها إلا كحلم طاف بنائم في الليل . يوشك الليل أن يمضي ويقبل الفجر بحقائق الحياة وألوانها وليس من حق يضيع في ميزان الله وعدله .

وأما خشية القلب فتأتي من يقينه بقول الله تعالى : (ولتسئلن يومئذ عن النعيم) وبما يعقب نعيم الدهر من غصص لا نجاة منها إلا بلطف الله ورحمته .

ومن بين الطمأنينة والخشية يعتدل المزاج وتستقيم أسباب الحياة .

العلم أساس كل سلوك واعتقاد

●

قال الله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) . ينهى الله عز وجل في هذه الآية نهياً صريحاً قاطعاً عن اتباع ما لم يتوفر الدليل العلمي الثابت على أحقيته وثبوته سواء فيما يتعلق بالاعتقاد او السلوك . وهذا النهي بذاته يتضمن بطبيعة الحال الامر باتخاذ العلم وسبيله ميزاناً لكل ما يتعلق بأمور الحياة .

والعلم هو ادراك الشيء على ما هو عليه في الواقع سواء كان ذلك الشيء من المحسوسات او المغيبات . فلا جرم أن الظنون والفرضيات والنظريات لا تعتبر علماً ، وإنما هي طريق الى العلم لم يتم بعد ، فلا بد من اجتيازه .

ولكن ما الحكمة من هذا الامر ؟.. وماذا يضير الانسان أن يغمض عينيه وفكره عن معرفة الحقائق ، ثم يسير في فجاج الحياة كيفما اتفق ؟ ..

والجواب أن هذا الحكم الإلهي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحكم أساسي قبله ، وهو وجوب الايمان بالله تعالى وإقامة منهج الحياة طبقاً لشرعه وأحكامه .

وليس من سبيل لإقامة الإيمان وتوابعه في القلب إلا سبيل العلم والإدراك اليقيني . وليس من آفة أخطر على الايمان بالله تعالى من الابتعاد عن المنهج العلمي والتعرض للظنون والاوهام والفرضيات وأسبابها ثم الوقوف عندها والاعتماد عليها .

وما ألحد الملحدون في ذات الله تعالى إلا لأنهم أقاموا الظنون والنظريات في عقولهم مقام اليقين والعلم ، ثم وقفوا عندها ولم يتجاوزوها . وما استقر الايمـــان بالله تعالى في أفئدة المؤمنين الصادقين إلا لأنهم لم يرتضوا بالعلم اليقيني بديلًا ، وأولئك هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب .

هذه حكمة .. وحكمة أخرى من وراء وجوب اتباع سبيل العلم . هي أن من شأن الانسان أن ينقاد في حياتـــه لمؤثرات مختلفة كلها من قبيل الهجس والأوهام ، وتأتيه هذه

المؤثرات عادة من الظروف التي تحيط به والبيئةالتي يعيش فيها.

وذلك ، كهذا الذي ينتاب الانسان من ردود الفعل ، وعقد النفس ، ودوافع العصبية ، والانتصار للذات والسير مع الاغراض والاهواء . ومن المعلوم أن اكثر ما يُسيرِ الناسَ في فجاج الحياة الفكرية والعملية، هذه الدوافع المختلفة التي تعصف بها البيئة والظروف وملابسات الاحوال . والذي يذهب ضحية ذلك كله إنما هو سلامة العقل وحرية الفكر .

يتضايق الانسان نفسياً من رجل من الناس ، فيحمل عقله بسبب ذلك حملا على استنكار ما يقوله ويدعو إليه . وينتاب الرجل عقدة نقص لأسباب طارئه في حياته فيذهب في التأثر بعقدة نقصه مذهباً يخاصم فيه العقل وأحكامه . وتطوف بإنسان آخر نوازع عصبية ، فيمضي في الانتصار لعصبيته الى نهاية يصم فيها أذنيه عن نداء الحق وعلمه !.

وهذا أخطر مظهر من مظاهر العبودية التي قد يقع الانسان حبيساً في أغلالها ، إذ تنشل عنده فاعلية العقل وتصبح قواه الفكرية تابعة في ضراعة وذل لظروفه ومشاكله النفسية .

فما هو السبيل الذي هيأه الله للانسان كي يتخلص من ربقة هذه العبودية ؟

السبيل أن يصحو دائماً إلى ميزان العلم وحقائقه ، ويستنجد لذلك بالاسلحة التي جهزه الله عز وجل بها : العقل ، السمع ، البصر ، ومختلف المدارك والحواس. فاذا صحا الانسان إلى ذلك وراح ينمي مداركه العلميه ويوسع أمامه من آفاقهـا ، فان سلطان تلك المؤثرات النفسية يتقلص عنه ، ويخبو ما قد يكون له من ضياء أمام نور العلم وسراجه المتقد ، ولا تعود الظروف والبيئات عذراً لأولئك الذين يحبون أن يعتذروا بها ..

ولا شك ان أكثر الناس تأثراً بالأوهام أبعدهم عن ساحة البحث ونظره . وأبعدهم عن أسر هذه الاوهام أكثرهم تعاملا مع العقل والعـلم الخالصين دون استغلالهما من أجل غرض نفسي دفين .

ولأهمية العقل وما يعينه على البحث والنظر ، من الحواس المختلفة كان امتلاك الانسان لذلك كله من اهم ما حمل من الامانات التي سيحاسب على تضييعها. من أجل ذلك تعلن الآية بصراحة ووضوح عن مسؤولية الانسان غداً عن هذه الاسلحة التي ائتمنه الله عليها : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا)

من آداب الإقبال على المساجد

●

قال الله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) .

تتضمن هذه الآية حكمين من أهم الاحكام الاجتماعية التي خاطب الله تعالى بها عباده في الارض . والذي يعنينا البحث فيه هنا إنما هو الحكم الاول منها . وهو ضرورة أخذ الرجل أسباب زينته من ملبس ونظافة عند الإقبال إلى المساجد . وقد جاءت هذه الآية تبطل وتحرم ما كان قد اعتاده عرب الجاهلية من الاقبال إلى المسجد الحرام والطواف بالكعبة عراة لا يسترهم ثوب ولا يجملهم مظهر . ولم تأمرهم الآية بمجرد ستر العورة او ارتداء الملابس ، ولكنها أمرتهم بما هو أخص من ذلك . أمرتهم بأخذ الزينة ، وأمرتهم بذلك عند كل مسجد لا في المسجد الحرام وحده .

وإذا كانت الحكمة واضحة من النهي عن العري سواء في

المساجد وغيرها ، فما الحكمة من الامر بما فوق ذلك من أخذ الزينة والتجميل في المظهر ؟

الحكمة من ذلك تحقيق القصد الذي أقيمت من أجله المساجد وندب الناس من أجله للصلاة فيها . ان الحكمة من ندب الناس الى المساجد ليست مجرد أداءالصلوات . فقد كان يسع الناس أن يصلوا في منازلهم مع أهليهم وأولادهم ولقد كان يسعهم لذلك ان يتخذ كل لنفسه منعزلا يأوي اليه في أوقات العبادة . وربما كان ذلك أجمع لقلبه وأقرب الى أسباب الخشوع في نفسه .

ومع ذلك فقد ندب الشارع جل جلاله الناس الى التلاقي في المساجد . وجعل صلاة الرجل مع الجماعة معادلة لسبع وعشرين صلاة من تلك التي يصليها الرجل منفرداً !

وانما سبب ذلك القصد الى ان يجتمع الناس.. فيتعارفوا.. فيتآلفوا . وتآلف المسلمين مع بعضهم أعظم غاية جاء الاسلام لتحقيقها ، فلا جرم ان ترى كثيراً من العبادات في جوهرها او آدابها وسيلة هامة لتحقيق هذه الغاية .

وإذ كانت هذه هي الحكمة العليـــا من تلاقي المسلمين في

المساجد ، فقد كان لا بد أن يتسم تلاقيهم هذا بما يعين على تحقيق هذه الحكمة لا بما يعيق السبيل اليها .

من أجل ذلك أجمع الفقهاء على أن من أراد ان يسعى الى المسجد لصلاة الجماعة ، فانتبه الى رائحة كريهة تنبعث من طعام قد أكله كثوم او بصل او نحوهما ، فان ذلك يعتبر معذرة شرعية تسوغ له التخلف عن الجماعة بل تفضل له ان يصلي في بيته .

ومن خرج من حانوته او انطلق من عمله قاصداً المسجد ، فرأى نفسه يرتدي من ثياب العمل ما يؤذي به الآخرين برائحته او اتساخه او نحو ذلك، ولم يكن في طوله اذ ذاك أن يستبدل بثيابه تلك ما هو أليق بالمسجد منها ـ فان ذلك يعتبر عذراً شرعياً يسوغ له الصلاة في حانوته او مركز عمله . وخير له أن يفعل ذلك من ان يؤذي الناس بثوبه .

وكلما كان الجمع في المسجد اكثر احتشاداً كانت الدعوة الإلهية إلى التجمل والنظافة اكثر وأدق . ولذا يجمع الفقهاء على استحباب الغسل لصلاة الجمعة ولبس أفضل الثياب لها والتطيب من أجلها بأفضل الطيب .

كل هذا من اجل ان يحقق اللقاء غايته السامية وهي ان يتعارف الناس في رحاب الله تعالى فيتآلفوا ويتعاضدوا ، وتتساقط بما بينهم أسباب الفوارق الدنيوية وتذوب مما بينهم الضغائن والاحقاد .

وليس من سبيل لأن يتآخى المسلمون ويتواددوا ويستشعروا زيف الفروق والرتب الدنيوية التي تفصل ما بينهم إلا عندما يلتقون صفاً واحداً بين يدي خالقهم العظيم جل جلاله في بيت من بيوته .

وكما يعمل البِشْر على الوجه والتحية الاسلامية على اللسان عملها في تحقيق هذا التآلف ، فكذلك من شأن التجمل في المظهر والنظافة في الملبس أن يكون كل منهما عوناً على تحقيق هذه الغاية التي ما أقيمت مساجد الله في الارض الا من اجل تحقيقها .



لا تقاليد في الإسلام

●

يقول الله تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون)

هذه الآية ـ ومثلها آيات أخرى في كتاب الله تعالى ـ تنعي على الذين اتخذوا تقليد الآخرين منهجاً لهم في الحيـــاة ، وتنهى المسلمين عن اتباع هـــذا السبيل .. سبيل تقليد الآخرين دون معرفة او تقويم لميزان الحق والباطل في ذلك .

وبناء على هذا الحكم الواضح في كتاب الله تعالى فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز التقليد في مبادىء العقيدة ، وأن من قال إنني أومن بالله لأني أرى أهلي جميعاً يؤمنون به أو لأن البيئة تفرض علي ذلك ، فان ايمانه ليس بالإيمان الصحيح الذي أراده الله تعالى منه .

ومن هنا كانت تسمية الاحكام الاسلامية كالصلاة والصيام والقيم الاخلاقية بالتقاليد ، تسمية خاطئة غير صحيحة . إذ إن كلمة « التقاليد » إنما تعني فى عرف اللغة وما تواضع عليه علماء الاجتماع مجموع العادات التي يرثها الآباء عن الاجـــداد أو التي تسري بمجرد عامل الاحتكاك في بيئة من البيئات او بلدة من البلدان . وأحكام الله ليست من هذا القبيل وإنما هي مبادىء قائمة على أساس من المصالح الدنيوية والأخروية .

والحكمة من النهي عن تصور العقيدة والاحكام الاسلامية مجرد تقاليد ، واضحة .

فإن تمسك الانسان بمبدأ او سلوك معين بدافع من التقليد المجرد للآخرين يتنافى مع الكرامة الانسانية التي أعزه الله بها ، كما يتنافى مع حركة العقل الطبيعية . والله عز وجل إنما تعبد عباده بهذا الدين إعزازاً لهم وتكريماً لا إهانة وإذلالا .

ثم إنك إذا لم تدرك من فوائد الاحكام الاسلامية المتعلقة بالسلوك أو القيم الاجتماعية إلا أنها تقاليد اسلامية كما يسميها كثير من الناس ، فذلك ليس إلا حجة عليك في تمسكك بهذه الاحكام

إذ من الجدير بك ، وأنت إنسان ذو عقل وفكر أن لا تتمسك بما هو مجرد تقاليد ، وأن تستبدل بها ما يهدي اليه العقل على ضوء الحق والمصلحة الصحيحة .

ولذلك فسرعان ما يتفلت عن أحكام الشريعة الاسلامية وآدابها ، أولئك الذين يحسبونها تقاليد . . ويتمسكون بها على أنها مجرد تقاليد ..

وأبعد الناس عن ترك هذه الاحكام أو الاستهانة بها ، أولئك الذين أيقنوا أنها مبادىء تحمل الى الناس أسباب سعادتهم وتجنبهم - أفراداً وجماعات - مطارح الشقوة والهلاك .

ولعل من أبرز مظاهر الغزو الفكري بالشعارات الدخيلة ، ما شاع من اطلاق شعار « التقاليد » على جملة القيم والمبادىء الاسلامية المتعلقة بالمجتمع والسلوك ، وترويجها في كل مناسبة . فهذا الشعار وإن كان يطلق من قبل كثير من الناس إطلاقاً عفوياً دون تنبه إلى مضمونه الخاطىء الذي ذكرناه ، ولكنه في أصل ترويجه وإشاعته ليس خطيئة عفوية .

فالغرض الاول من ترويج هذه الكلمة : « التقاليد

الاسلامية » هو ان يؤتى بمعظم النظم والاحكام الاسلامية فيسدل فوقها شعار : التقاليد . حتى إذا مر على ذلك زمن وألف الناس هذه التسمية وارتبطت في أذهانهم بمعظم أحكام الاسلام ، ناسين أن هذه الاحكام ليست في حقيقتها إلا مبادىء قائمة على ما يقتضيه العقل والبحث السليم - أصبح من السهل على أعـــداء الاسلام ان يحاربوا أحكامه من النقطـــة التي تنفذ اليها حرابهم وسهامهم . وهي نقطة حرب التقاليد في عصر يبحث فيه الناس عن الحرية .

ولكي لا يقع المسلمون في شرك هذه المكيدة ، يجب ان يتذكروا دائماً كيف نهى الله الناس عن تقليد بعضهم بعضاً وعن اتباع الأبناء لما كان عليه الاجداد دون تمييز للحق من ذلك عن الباطل ، ثم يتذكروا أن احكام الله تعالى التي كلفنا بها اعتقاداً او عملا ليست إلا مبادىء مرتكزة على ما تقتضيه مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم وليست مجرد تقاليد لمـــا كان عليه الآباء والاجداد .

العدل في الكيل والوزن

قال الله عز وجل : (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا)

يامر الله عز وجل في هذه الآية بتحقيق مظهر من أبرز مظاهر العدل وأهمها ، وهو العدل في الكيل والوزن بين المتبايعين . ويتكرر هذا الامر باهتمام في آيات اخرى من كتاب الله عز وجل ، وربما سيق هذا الامر مساق التهديد لمن لم يأتمر به ويخضع له ، إذ تراه يقول :(ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم او وزنوهم يخسرون)

أما في الآية الاولى فهو يأمر الناس بالعدل في ذلك وينبههم الى ان ذلك خير لهم وأحسن عاقبة ونتيجة ، اي لا يغرنكم الربح العاجل الذي تجنونه من وراء التلاعب بالكيل او الوزن فانه شيء موقوت ، وسرعان ما ينقلب الربح إلى خسارة وبلاء

وفي ذلك اشارة الى جانب من الحكمة العظيمة المتعلقة بهذا الحكم .

فهو سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ان الظلم في المعاملة التجارية قد يعقبه بعض الربح، وقد يكون ذلك دافعاً صاحبه الى الامعان في ظلمه او خداعه ، بيد انه سرعان ما يعرف بين الناس بذلك ويجعل الله تعالى من عادته تلك مظهراً يتلبسه فيعرف به بين عامة أهل السوق ورواده . فينقلب عليه الحال ويتحول ذلك الربح الجزئي السريع الى خسارة كلية دائمة .

فذلك هو معنى قوله عز وجل : ذلك خير وأحسن تأويلا .

وحكمة أخرى من وراء هذا الامر الارشادي الخطير .

هي ان سلامة التعامل بين المسلمين تعتبر المهيىء الطبيعي الاول لقيام حقيقة التضامن والتآلف فيما بينهم ، فبقدر ما يشيع بينهم من مظاهر العدل في المعاملات والمبايعات اليومية الدائرة بينهم يشيع بينهم في أعقاب ذلك معنى التماسك والتآلف والاتحاد .

وسوء التعامل بين المسلمين يعتبر المهيىء الطبيعي الاول لقيام مظاهر الشقاق والبغضاء فيما بينهم . وبقدر ما يشيع بينهم

من التظالم في المعاملات التجارية المتعلقة بأقوات الناس وأسباب عيشهم ، يشيع بينهم التهارج والتخاصم والشقاق .

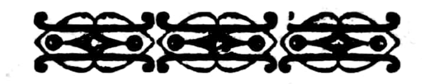
وإنما يركز البيان الإلهي العظيم ـ في مجال التحذير من الظلم في التعامل ـ على هذا المظهر الجزئي بذاته وهو التلاعب بالكيل او الوزن، دون ما وراء ذلك من فنون الغش والخداع ، لان منطلق هذه المظالم الخطيرة يكون في أول الامر مسائل جزئية مستحقرة ، يمارسها الرجل بادىء الامر وهو غير عابىء بشأنها او ناظر الى أهميتها ، حتى اذا أحس بنتائجها القريبة الخادعة واستمرأ طعمها ، دعاه ذلك الى البحث عن فنون أخرى من هذه الجزئيات .. فلا يزال يوغل فيها ويتفنن في أنواعها حتى ينقلب عمله التجاري الذي كان مشروعاً الى أخطر وسيلة غير مشروعة لأخذ اموال الناس بالباطل .

وهكذا فان تلاعباً يسيراً بالكيل او الوزن ـ قد لا يراه البائع ذا أهمية او خطورة ـ يسري الى نهاية خطيرة يتحول فيها البيع الى عملية سرقة وقنص .

وهذا هو أسلوب القرآن دائماً عندما يحذر من الانحراف الى

الفواحش والموبقات . إنه لا يحذرك من نهاياتها الخطيرة البعيدة ولكنه يحذرك من الاندفاع في طرقها السهلة القريبة . ذلك لان السبيل الوحيد الى أن لا تقع في تلك الموبقات هو ان لا تسلك مسالكها . اما اذا سلكت فيها ودنوت اليها فهيهات ان تقوى على الرجوع. انك تقع عندئذ ضمن حدود جاذبيتها ، وقلما تمكن مغامر من التخلص عن تلك الجاذبية والرجوع الى أول السبيل الذي انحرف اليه .

من أجل هذا ينهى الله تعالى دائماً عن القرب من الموبقات لا عن نفس الوقوع فيها . فهو يقول : ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا .



التحقق من الأخبار قبل الاعتماد عليها

●

يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)

الحكم الذي تقرره هذه الآ ية ويخاطب الله تعالى به عباده، هو ان يتريثوا فيما يبلغهم من الانباء المتعلقة بهم ، بعضهم مع بعض حتى يتأكدوا من صدقها ووقوعها .

فليس كل ما قد بلغك عن صاحب او صديق أمراً جازماً لا يعتريه احتمال او شك ، وليس كل من بلغك نبأ عن انسان تعرفه ، صادقاً او متثبتاً من هذا النبأ .

ولهذا الحكم الاسلامي العظيم حكمة باهرة ، اليها مرد قيام المجتمع الانساني السليم .

إن دعائم المجتمع الصالح لا يقوم إلا على أساس من التساند والتعاون . وإنما يتم التعاون بالصدق .. فما لم يتوفر الصدق بين عمال « ورشة » يتعاونون في إقامة بناء ، لا يمكن لبنائهم أن

يقوم ، وربما ظهر قائماً الى بضعة ايام ، ولكنـــه لا يلبث أن يتهاوى بعد ذلك .

وليس من فرق بين تعاون الامة لاقامة صرح مجتمعهـــا السليم ، وتعاون العمال لاقامة بنائهم الصالح المتين .

وأول خطوة الى التعاون الاجتماعي إنما هي المشورة الصادقة والرأي المخلص . ومن هنا ندب الله تعالى الى الصدق وألزم الناس به وحذرهم من الكذب ومغبته . ولكن أرأيت لو أن في الناس من استهواه الكذب على الآخرين من أجل هوى في النفس او مصلحة من مصالح الدنيا ، ولم يكن لتحذير الله تعالى ونهيه من سبيل الى اصلاح حاله، فما هي الوسيلة الى منع أن يؤتي الكذب ثماره وإلى قطع الطريق على من جاء يتوسط به لنيل غرض او إشفاء غليل ..؟

الوسيلة هي تنبيه الآخرين الى ان لا يحملوا أي خبر يتلقونه على محمل الصدق ، وان عليهم أن يستعملوا كل ما آتاهم الله تعالى من وسائل النظر والبحث للتحقق من أمره وللتأكد من

صدقه ، حتى لا يقعوا في الندم من جراء استنادهم الى أمر وهمي لا حقيقة له

وبذلك، فان الشريعة الاسلامية قد أخذت الحيطة - حفظاً لسلامة المجتمع - من جانبين : جانب المتكلم إذ امرته بالصدق وحذرته من الكذب ونبهته الى عظم إثمه وجريرته ، وجانب السامع إذ أمرته بالتثبت والتأكد مما يسمع وحذرته من ان يسارع الى تصديق كل ما قد يبلغه فيقع في ندامة من أمره .

ومبعث الأهمية في هذا الامر، هو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع من التضامن والتآلف وما ينبغي ن يشيع فيه من الوداد، واكثر ما يفصل عرى الالفة بين اخوة متآلفين ، او أصدقاء متحابين او أسرة متفاهمة، سعاية كاذبة يغامر بها ذو غرض او هوى أو حقد دفين . فلا هو يلتفت الى تقوى الله تعالى والمخافة منه إذ حذره من الكذب والافتراء، ولا هم ينصاعون الى امره عز وجل في التريث والتحقق من الامر الذي بلغهم، فتقع الفتنة انطلاقاً من وهم غير حقيقي ، ثم تكبر أحداثها وتتعقد مظاهرها وتغدو بعد ذلك حقيقة لا علاج لها . وتنتكس من جراء ذلك

وحدة المجتمع وتنهار قواه بدلاً مما كان قد أريد له من التماسك والقوة والتضامن .

ولو ان أحد الطرفين فاء الى امر الله تعالى ، فحفظ المتكلم لسانه من الكذب أو امسك الآخر سمعـــه عن المبادرة الى التصديق ، لما قامت الفتنة ولما حدث افتراق او شقاق .

وما وقعت الندامة على أمر لا رجوع فيه ولا علاج له ، كتلك التي تقع من جراء تصديق خبر كاذب تقام عليه تصرفات سريعة خاطئة . وجلت حكمة الخالق العظيم إذ ينبهنا الى ذلك قائلا (.. أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)



مُفارقة السُّوء وأهله

•

يقول ربنا جل جلاله (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم اذاً مثلهم . ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) .

في هذه الآية نص صريح بيّن الدلالة على أنه ما ينبغي للمسلم أن يركن الى شيء من اللغو المحرم يسمعه بأذنه او الى مظهر من مظاهر الاثم يراه بعينه ، ثم لا يفارقه ولا يعمل على ازالته وانكاره . وتذهب الآية في الاهتمام بهذا الحكم مذهباً تهدد فيه من لم يفارق مثل هذه المجالس أو المظاهر ، بانه معتبر في حكم الله عز وجل مثل أهلها ، وانه سبحانه وتعالى يجمعه واياهم تحت عقوبة ذلك اللغو او الاثم .

أما الحكم فهو شيء متفق عليه عند جميع الائمة والباحثين ،

لما جاء في ذلك من نص واضح الدلالة لا يحتمل قيداً ولا تأويلا

وأما الحكمة ، فنقطـــة ذات أهمية بارزة تتعلق بأسس التربية وأسبابها .

وقد يعجب من كل هذه الشدة في الحكم ، من لم يتنبه اليها ولم يمعن النظر فيها ، وقد يقول قائل : وما يضيرني أن ارى المنكر الذي لا أمارسه ، او اسمع اللغو الذي لا أومن به ؟

إن مبعث الخطورة في هذا الامر ، أن المسلم إذا أطلق لنفسه العنان في مجالسة أصحاب المنكر ورؤية او سماع منكراتهم كان ذلك ايسر سبيل تربوي سريع إلى ان يتدرج هذا المسلم في التعود على رؤية ذلك المنكر اولا ، ثم في ائتلافه له وأنسه به ثانياً ، ثم في التعلق به واستخراج المسوغات والمعاذير له ثالثاً .

وانظر .. فان كثيراً ممن يعيشون من المسلمين في المجتمعات الاوربية ، يتضايقون مما يرونه ويسمعونه من مظاهر الفحش او الاثم في اول عهدهم بها . ثم انهم يغفلون عن هـــذا الضيق وأسبابه بمرور فترة من الزمن . وبمرور فترة أخرى يتعودون عليها ولا يشعرون بشيء مما قد كانوا يشعرون به تجاهها ، رغم

اعتقادهم - من الناحية العلمية - بجرمتهـــا ، حتى اذامضت فترة أخرى من الوقت ، بدؤوا يستشعرون حسنها وصلاحيتهـــا ويدافعون عن وجهات أهلها ويرون لهم المسوغات المختلفـــة في عكوفهم عليها. وهكذا فان استمرار المجالسة او المشاهدة وحدها حولت فكرة المنكر الى معروف .. وحولت الشعور بالنقمة الى شعور بالرضى . واذا وصل المسلم الى هذه النهاية واستوى مع اولئك الآخرين في الرضى عن المنكر والاستئناس به ، فسيان أن يشترك معهم في لغوهم وآثامهم او ان يكتفي بالرضى والتسويغ . . فمن أجل ذلك بين الله تعالى انه سيجمعـــه مع اولئك الآخرين في جهنم جميعـــاً . اذ ان مآله الى ان يكون مثلهم .

وتلك هي الحكمة من حرمة ان يهاجر المسلم الى بـــلاد الكفر ، بل من حرمة الاقامة فيها لغير ضرورة من دراسة علم مفيد او استجلاب رزق ضروري .

وربما ظن بعض الناس ان هذا الحكم تضييق لا لزوم له . ولكنا اذا علمنا أن اكثر ما يصطبغ به الانسان من فكر

وسلوك إنما يأتي عن طريق البيئة والاعتياد لا عن طريق النظر والعقل المجردين - ادركنا ان هذا الحكم الإلهي هو الذي يجب ان يصار اليه ، وهو الاساس التربوي الاول للمحافظة على الحق الذي آمنا به اعتقاداً وخلقاً وسلوكاً .

ومن اجل هذا كان بيان الله تعالى حاسماً في هذا الامر اذ قال : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ .. قالوا كنا مستضعفين في الارض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)

على انه يستثنى من ذلك - كما قلنا - من اضطره الى العيش معهم علم لا بد له أو للامة الاسلامية من تحصيله او رزق لابد له من استجلابه . وعليه ان يكون ذا عزيمة غلابة في الاحتفاظ بعقيدته وخلقه وسلوكه . وعليه ان يجهد جهده بان يجعل من ذاته ياقوتة لا يحرقها اللهب ..



من آداب الإنفاق في سبيل الله

●

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض . ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد) .

من المعلوم ان الانفاق في سبيل الله للفقراء والمحتاجين ، من أهم الطاعات المبرورة التي يثاب المؤمن عليها . إلا ان لذلك شروطاً وآدابا أوضحها الله تعالى ، فلا يستأهل المنفق على انفاقه أي أجر ما لم يراع هذه الشروط والآداب .

من أهمها ما ذكرته هذه الآية من ان الانفاق لا ينبغي ان يكون إلا من طيبات ما قد يكسبه المنفق ، والطيبات وصف يشمل الكسب الحلال الذي لم تتدخل وسيلة غير شرعية في اكتسابه كما يشمل الصالح المستطاب من الرزق مما لا تأنفه الطباع ولا تعرض عنه النفوس . فينبغي ان يتوفر كل ذلك في

المال الذي يعمد صاحبه الى إنفاقه .. ولا يليق به أن يتقصد الخبيث منه يتبرع به ويلقى الفقراء لانفاقه عليهم ، وهو لو رآه في السوق لاعرض عنه ولما أخذه إلا متساهلا فيه ومعتبراً أنه قد تجاوز كثيراً من حقه بذلك .

هذا هو الحكم الذي يقرره خطاب الله تعالى باسلوب تربوي رائع أخاذ ، فما الحكمة من ذلك ؟

الحكمة ان الله تعالى عندما فاوت بين أرزاق الناس، وابتلى الغني منهم بغناه والفقير منهم بفقره ، ثم امر الاغنياء بالانفاق من فضول اموالهم على الفقراء - لم يرد من ذلك ان يتخذ الاغنياء من مبدأ الانفاق هذا وسيلةلأن يتعالوا بذلك على الفقراء ولا أن يتخذوا منهم مثابة يطرحون عليها فضلات أرزاقهم مما قد تبرموا به او استخبثوه او استنفدوا غرضهم منه .

فهذا العمل إن لم يكن في حقيقته سبباً لغضب الله تعالى وسخطه ، فانه لا يمكن بحال ان يكون سبباً لأجر يناله أربابه عليه . وكيف ينالون عليه ثواباً وهو إنما اهتدى بعمله ذاك الى المكان المناسب لإلقاء كل ما تعافه نفسه من الاطعمة وما قد

ملته نفسه من الملبس والكساء ، او ما لا يصلح عنده من الرزق والقوت. ولعله لو لم يجد فقيراً يقبل ذلك منه لتيمم به المزابل ومَطْروح الفضلات .

إن سلوك هذا السبيل من الانفاق، من شأنه أن يحمل أقوى معاني الجرح والإيذاء لأولئك الفقراء والمحتاجين ، ولئن كان الى جانبه شيء من النفع المادي ، فان النفس الانسانية لأكرم من ان تقبل الإيذاء في سبيل نيل لقمة من طعام. ولا يريد الله تعالى لعباده ان يتعودوا إلا على مزيد من الكرامة والإباء في حياتهم، وإذا كان الفقر .. فان الفقر مع توفر الكرامة لصاحبه خير عند الله وأفضل من ان يتحول الى غنى في المال وفقر في الكرامة والعزة الانسانية .

من أجل هذا يخاطب الله تعالى هؤلاء الناس قائلا : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم)

وما امر الله اصحاب الاموال بالانفـــاق على الفقراء من أموالهم ، الا ابتلاء لهم بذلك بعد أن غرس في نفوسهم الحب العجيب للمال وجمعه وتربيته . وإنما يستأهل النجاح والفوز في

هذا الامتحان من اقتطع من احب أمواله اليه فآثر بـــه من هو أحوج منه إليه ، ثم لم ينظر اليه إلا على انه هو المتفضل المتكرم إذ قبل أن يأخذه منه ، فهيـــأ له بذلك فرصة أجر يناله من الله تعالى على ذلك .

فهذا هو الانفاق القائم على النهج الاسلامي الصحيح ..

وهذا هو الانفاق الذي يحقق مزيداً من التآلف والحب بين فئات المسلمين وجماعاتهم .

ولقد كان الله قادراً على ان يغني الناس عن بعضهم ، فلا تكون لأحـــد منهم في عنق الآخرين منة وفضل ، ولكنه أراد - جلت حكمته - أن يترابط الناس بعلاقات الحاجـــة والمعونة فيما بينهم حتى ينتسج لهم من ذلك خيوط الالفة والتضامن والوداد ، وحتى لا يؤول المجتمع الانساني الى انكاث .

وأمر الناس في هذه الحياة ، مرده أولا وآخراً الى الابتلاء والامتحان. وما أجل الحكمة الإلهية القائلة : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا)

النّهي عن الاكثار من اليمين

قال الله تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) .

ينهى الله عز وجل عباده في هذه الآية عن ان يتخذوا من اسمه أداة دائمة لتوثيق أقوالهم وحمل الآخرين على تصديقهم ، او وسيلة للتخلص من رجاء الناس وحاجاتهم . ويؤكد الله عز وجل هذا النهي في آية أخرى بقوله : (واحفظوا أيمانكم) أي لا تجعلوها مبتذلة تستعملونها في كل حق وباطل ، ويذم الذين يكثرون من اليمين فيقول : (ولا تطع كل حلاف مهين) .

أما الحكمة من هذه النهي فتعود الى امرين اثنين كلاهما في غاية الاهمية بالنسبة لما ينبغي ان يكون عليه المسلم .

أولهما : ان اسم الله عز وجل ينبغي يكون دائماً في المرتبة الاسمى من شعور المسلم وفؤاده، حتى اذا ذكر به من غفلة أخذته الخشية وشعر بالهيبة ، وكان لذاك سلطان كبير على قلبه

وهي الصفة التي عبر عنها القرآن بقوله عز وجل (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم). وهيهات لمن كان دأبه اقحام اسم الله تعالى في كل جد وهزل ، واستعماله أداة لترويج تجارته او إنفاق بضاعته او اعتماده وسيلة لحمل الناس على تصديقه في كل ما يتحدث اليهم به - هيهات لمن كان هذا دأبه ان تبقى في قلبه مع الايام ذرة من الخشية او الرهبة عندما يُذكَّر باسمه او يتلى عليه شيء من آياته وهديه .

إن اسم الله عز وجل ، لا يذكر اكثر هؤلاء الناس إلا بمصالحهم او تجاراتهم التي يقرنون اسمه عادة بها . وتلك هي اخطر آفة تبدأ بسوء ادب مع الله تعالى ، ثم تنتهي بقسوة في القلب تبعد صاحبه رويداً رويداً عن حقيقة الايمان ذاتها .

ومن قبيل ذلك ما يدأب عليه بعض الناس من اتخاذ صيغة الصلاة على رسول الله ﷺ وسيلة لترويج بضاعة او التعبير عن فرحة . فقد اجمع العلماء على استهجان ذلك ومنعه ، اذ في ذلك الى جانب الامتهان الذي يجب ان يحاذر المسلم من التلبس به ، التهوينُ من امر النبي ﷺ، واتخاذُ أصدق صيغة لتعظيمه تعبيراً عن غرض دنيوي تافه .

فهذه هي الحكمة الاولى .

أما الحكمة الثانية ، فهي ان اليمين إنما شرع في اصله حملا لصاحبه على الصدق والدقة في التعبير ، إذ هو يجعل الله تعالى بذلك شاهداً على ما يدعي ويقول . والمسلم اياً كانت حاله لن تبلغ به الجرأة على الله ان يجعله شاهداً على قول هو كاذب فيه ، إذ هو يعرض نفسه بذلك لاعظم سبب من أسباب سخط الله تعالى وعقابه . ولذلك كانت اليمين بشروطها وقيودها المعروفة من أهم البينات المعتبرة في الدعاوي .

فاذا ذهب المسلم يجعل من هذا اليمين الخطير كلمة دائرة على لسانه عند كل مناسبة ولدى اي محاورة او خصومة ، فانها تفقد بذلك اهميتها الذاتية ، ولا يبقى فيها (مع الزمن) ما يحمله على استشعار أهميتها او سلطانها . وبذلك يصبح القسم وغيره سواء عند هذا الرجل في امكان الكذب والافتراء . بل يصبح استعمال الحلف بالله فناً من فنون الخداع ووسيلة من وسائل الكذب المغطى .

وفي ذلك ما يعرض هذا الانسان لبالغ سخط الله تعالى

وعقابه . وما يعرض المجتمع للاذى والفوضى والاضطراب ، إذ تنعدم الثقة بالمسلمين بعضهم مع بعض ، ولا تبقى لرابطة الايمان بالله والخضوع لسلطانه أي ثمرة اجتماعية مفيدة، إذ هي - عندئذ - ليست رابطة إلا في الظاهر فقط .



أهمّيّة إفشاء السّلام

•

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتي تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ .. أفشوا السلام بينكم) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داود .

يندب رسول الله ﷺ المسلمين في هذا الحديث الى التحابب ويبين أن من أهم أسباب ذلك إفشاء السلام بين المسلمين . وقد اجمع المسلمون على ان إفشاء السلام من اهم شعائر الاسلام وأبرزها وإن بدء المسلم أخاه بالسلام حيثما رآه مندوب اليه ، أما رد السلام فواجب يأثم المسلم بتركه . وأجر الذي يبدأ بالسلام اكثر عند الله من اجر من يرد عليه وإن كان الاول مندوباً والثاني واجباً . وقد اوضح الفقهاء ان هذا من الاماكن القليلة

المعدودة التي يعتبر فيها الندب أفضل من الواجب .

أما حكمة ما اودعه الاسلام من اهمية في هـذا الشعار الاسلامي الفريد ، فهي انه من اهم ما ينسج خيوط الالفة والمآنسة والوداد بين جماعات المسلمين . بل هو من اهم ما يغسل عن أفئدتهم ما قد علق بها من أسباب الضغائن والاحقاد .

أرأيت الى الماء العذب إذ يتدفق جارياً باستمرار ، كيف يجعل المكان الذي يجري عليه نقياً من كل رجس او مستقذر ،. فكذلك السلام عندما يشيع على السنة المسلمين بصيغته الاسلامية العذبة، في اسواقهم وحوانيتهم ومجتمعاتهم، فانه لا يُبقي من درن في افئدتهم ولا يترك فرصة لبغضاء تتسلل الى نفوسهم .

ولعل المسلمين قد نسوا هذه الاهمية البالغة لهـذا الشعار الاسلامي العظيم بما ألفوه واعتادوا عليه . فاصبحوا يتساهلون فيه من اجل ذلك . ولكنهم لو تأملوا في كلمة « السلام عليكم » يخاطب بها المسلم أخاه أياً كان يعرفه او لا يعرفه ، حيثما رآه :

في طريق او شارع عام او حانوت تجارة او ملتقى سمر او مسجد من مساجد الله ، ثم في ردها الذي يأتي من بعدهـــا : (وعليكم السلام ورحمة الله) - أقول لو تأمل المسلمون هذا ، لرأوا فيه أروع وأعجب مزية يمتاز بها المسلمون عن أمم الارض جميعاً . ومن شأن هذه المزية اذا روعيت حق رعايتها وأعطاها المسلمون كامل حقها ، أن تشيع بينهم حقيقة السلام الذي هو شعارهم ، فلا يعيش فيما بينهم حقد ولا بغضاء ولا يقيم بينهم كيد ولا عدوان .

إن اسلام المسلم يدعوه الى ان يعلم دائماً انه (كما قال رسول الله ﷺ) أخ للمسلم فهو لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره . وهذا المعنى قد يكون غائباً عن بال المسلم في كثير من الاحيان بسبب غفلة او تشاغل . فاذا ما اقبل اليه صاحبه بقوله : السلام عليكم ، صحا الى ذلك المعنى الاسلامي العظيم وتنبه الى الوشيجة الإلهية الكبرى التي تصل بينه وبين أخيه هذا ، وجاء رده عليه بقوله « وعليكم السلام ورحمة الله » بمثابة اقرار واذعان لهذه الوشيجة ومعاهدة على الحفاظ عليها والرعاية لها .

من اجل هذا قضت شرعة الاسلام بتجدد السلام كلما تجدد اللقاء حتى وان كان لقاء قريباً وان كان الحاجز بينهما غير ذي بال كجدار او بضعة أشجار . أرأيت الى رسول الله ﷺ إذ يقول : اذا لقي أحدكم أخـــاه فليسلم عليه ، فان حالت بينهما شجرة او جدار ، ثم لقيه فليسلم عليه أيضاً .رواه أبو داود

ومن اجل هذا كان جديراً بالمسلم المعتز باسلامه ان يتحول عن كل تحية اعتادتها الامم المختلفة الى تحية الاسلام التيعودنا إياها ربنا جل جلاله ، والتي جعلها شعاراً لحياتنا فيما بيننا نتذكر بها حقيقة الاسلام كلما غفلنا عنها . ونذكر بها وشيجة الحب والسلام فيما بيننا كلما اوشك ان تعدو عليها عوادي الاهواء والنفوس .

* * *

في تربيةِ الأولاد

قال رسول الله ﷺ : (مروا أبنـــاءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر . وفرقوا بينهم في المضاجع) رواه احمد في مسنده وأبو داود في سننه .

يتضمن هذا الحديث حكماً من اهم الاحكام المتعلقه بتربية الاولاد ، بل هو يتضمن ثلاثة أحكام في ذلك : أمر الاولاد بالصلاة ، ثم ضربهم عليها ، والتفريق بينهم في المضاجع . وهو واجب من الواجبات الشرعية المتعلقة بعنق الوالد ، يسأله الله تعالى عنه يوم القيامة ان ضيعه ، ويثيبه الاجر العظيم عليه ان قام به على وجهه .

أما الحكمة منه ، فبيان ذلك اجمالا ان الله تعالى أناط امر الصغار وتربيتهم بأولياء امورهم بدءاً بالولي الاقرب وهو الاب ، فهم المسؤولون عن كل تقصير يبدر منهم او انحراف

يقعون فيه ، كما انهم مجزيون بمثل اجورهم عن كل بر يتصفون به وعمل صالح يعملونه

ومسؤولية الاب عن اولاده تعتبر اول حلقـــة في سلسلة المسؤوليات التي اقام الله المجتمع الانساني عليها . ولذلك فانها أهم واخطر حلقة فيها على الاطلاق .

أما بيان الحكمة من هذا الحكم على وجه التفصيل ، فهو أن الطفل عندما يولد ، انما تسلمه الاقدار الإلهية الى ابويه وهو مطبوع بطابع الفطرة الاسلامية السليمة بحيث لو لم يعبث اي عابث به ولم يلق من العناية الا المحافظة عليه ، لتمت نشأته على الحق والهدى، ولما وجدته مائلا عن السبيل الحنيف يمنة او يسرة وإنما ينحرف الذين ينحرفون في صغرهم، لان عواصف معاكسة هاجت على غراسهم اللدن الضعيف دون ان يكون من حولهم اي حماية له ، فلم تزل به حتى قصفته او اقتلعته .

وإنما وقت الحماية لهذا الغرس ، تلك الفترة التي يكون فيها لدناً ضعيفاً لا يحمي نفسه بذاته ، فاذا تجاوز تلك الفترة لم يبق من فائدة للحماية او الرعاية ، لانه ان كان قد نشأ صالحاً مستقيما فقد استقل بنفسه ولم يعد بحاجة الى غيره . وإن نشأ معوجاً غير

سوي ، فقد استصلب على تلك الحالة، ولا يميله عنها الا التحطيم او الكسر . فمن اجل ذلك كان سبيل التربية الصالحة في الحكم الاسلامي هي الفترة الاولى من نشأة الطفل وحياته .

وأهم ما يجب أن يألفه الطفل ويعتاده - بعد تنبيهه الى العقيدة السليمة عن الكون - إنما هو الصلاة. فهي المنطلق السليم لترسيخ بقية القيم الخلقية والاسلامية في نفسه وسلوكه ، وهي الغذاء الفطري الوحيد لشخصيته الاسلامية التي تحوي جميع المبادىء الانسانية العليا .

فلا جرم ان تركيز الاب في تربية طفله إنما ينبغي ان يكون على الصلاة . والتربية لا تؤتي ثمارها إلا اذا قامت على أساسين اثنين : الرغبة والرهبة . وإنما ينبغي ان يكون البدء باستعمال الاول منهما ، حتى اذا لم تجْدِ نفعاً ، وكان الطفل قد وصل من الوعي الى حيث يدرك معنى الرهبة وآثارها دون ان يجدي معه الترغيب - كان لابد من استعمال هذه الوسيلة الثانية.

ومن الخطأ الجسيم ما يتراءى للبعض من ان الافضل ان يؤخذ الطفل - في قضايا الدين وسلوكه - دائماً باللين والترغيب

فقط . ذلك لأن حوافز الرغبة قد لا تكون متفوقة دائمـــاً على عبء العبادة لا سيما الصلاة . بل ان الطفل يجد - على الاغلب - ثقلا كبيراً في ان ينهض دائماً الى الصلاة لاوقاتها ، ومهما أغريته في سبيل ذلك بالمرغبات ، فانه يسعى جاهداً ان يحتال لنيل الاجر ويتخاص في الوقت ذاته من عبء الجهد الذي يطلب منه

ومن الخطأ أيضاً ما يترآءى لبعضهم - بدافع من الشفقة - من ان الزمن ، على امتداده ، سيهيء للطفل ظروف الصلاح والاستقامة ، فيحمله ذلك على التهاون في تربيته وإهمال شأنه . حتى اذا اشتد عوده واستصلبت نفسه لم يبق من سبيل في يد الاب او غيره لمعالجة امره او تقويم وضعه . ولا يجديه اطلاقاً - عند الله عز وجل - ان يعتذر اذ ذاك بانه لايقوى على اصلاحه فان الله عز وجل لم يكلفه بان يفعل ذلك عندما اصبح رجلاسوياً يشركه في النظر والبحث ويتقدمه في القوة والجسم . وإنما كلفه بذلك عندما سلمه إياه مطبوعا بفطرة الاسلام منطوياً على كيان لدن خاضع لكل تحويل او توجيه . وكان الطفل بذلك اخطر أمانة في يده . فلما ضيعها باهماله كان ذلك منه اخطر مسؤولية يحاسبه الله عليها يوم القيامة .

العدل في أعطيات الأولاد

عن النعمان بن بشير انه قال ، ان اباه بشيراً اتى الى رسول الله ﷺ فقال : اني نحلت ابني هذا ـ اي اعطيته ـ غلاماً كان لي . فقال رسول الله ﷺ : أكلّ ولدك نحلتهم مثل هذا ؟ قال : لا ، قال رسول الله ﷺ فارتجعه . متفق عليه .

ينهى رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن ان يخص الاب بعض ابنائه بشيء من المـــال دون اخوته الآخرين ، ويأمره بالتسوية بينهم في ذلك. فان اختص بشيء منه بعض ابنائه دون رضى الآخرين فالعلماء في ذلك بين محرم ومكره . ولم يقل أحد منهم بإباحة ذلك ، لصراحة هذا الحديث في النهي عنه . اما إن توفر الرضى الحقيقي لدى الآخرين فهو أمر جائز وتتفاوت درجة استحبابه بدءاً من الاباحة حسب المصلحة الداعية الى ذلك

وحكمة هذا الحكم واضحـــة . فان من اهم ما ينبغي ان يعتمده الوالد في تربية اولاده التساوي بينهم في كل ما يمنحهم إياه

من ذاته او ماله، فان رعاهم بعاطفة كان عليه ان يساوي بينهم فيها ، وان منحهم من حنانه كان عليه ان يكون عدلا في توزيع ذلك عليهم ، وان اكرمهم بشيء من المال كان عليه ان لا يميز احداً منهم على آخر .

ومعلوم ان التهاون في شيء من هذا المبدأ يستوجب آثاراً ضارة تذهب بجدوى معظم الوسائل والمحاولات التربوية التي قد يقوم بها الوالد .

واذا كان اهمال العدل في توزيع نظرات العطف والحنان ، يعقد من نفوس الصغار ويُشيع مشاعر الحقد فيما بينهم ، فان اهمال العدل في توزيع المال او الهدايا عليهم من شأنه ان يطلق فيما بينهم مشاعر السخط والحقد حتى وان أصبحوا رجالا كباراً.

وإذا كان الاسلام حريصاً على ان تشيع في كيان الاسرة عوامل الود والتعاون والتضامن ، فانه يحذر أشد الحذر من هذا الذي قد يعصف بكل عوامل التفاهم والوداد فيها .

ثم إن المجتمع ليس الا مرآة كبيرة ينعكس على صفحتها كل ما قد تتلبس بـــه الاسرة من الاحوال . فشيوع العدل

والتآلف في افراد الاسرة ينعكس مثل ذلك على واقع المجتمع ، وظهور أسباب الضغينة والبغضاء فيهـــا ينعكس مثل ذلك ايضاً عليه .

وما حاق الظلم على واحد من افراد الاسرة ثم لم يستطع ان يحقق لنفسه اسباب الخلاص منه ، الا واتجه بحقده الى المجتمع يعثو فيه ويتقاضى ظلامته منه .

ولولا ما يعانيه كثير من الاسر من اهمال المسؤولية وضياع العدل فيها لما رأيت شيئاً من مظاهر الفوضى او الظلم سارية في المجتمع سائدة بين كثير من افراده .

فمن اجل ذلك يشتد الاسلام في احكامه المتعلقـــة بالاسرة ووجه تربيتها ورعايتها . ومن اجل ذلك كان حقاً على الاب ان يساوي بين اولاده في الرعاية والعطاء ، طالما كانوا سواء امامه في اصل البر والطاعة .

قد يقول البعض : ولكن الرجل يملك ان يعطي كل ماله لشخص اجنبي ، افلا يملك ان يعطيـــه لواحد من اولاده دون الآخرين ؟

والجواب : ان هناك فرقاً بين المثالين . فليس بين الشخص الاجنبي والاولاد قدر مشترك من العلاقة العاطفية بالمعطي ، ولذا فقد تتدخل الاعتبارات والعوامل المختلفة التي من شأنها ان تميز احدهما على الآخر . اما الاولادالذين يتّسمون بقدر مشترك من صلة القرب بشخص والدهم ، فان الاعتبارات كلها لا تقوى على ترجيح واحـــد منهم على الآخر ما دام الكل متصفين بالبر والطاعة لأبويهم .

أما اذا خرج بعضهم عن حدود الطاعة وتجاوز حدود البر الذي أوجبه الله تعالى على الابناء ، فتلك حالة أخرى لابد من الحكمة والروية في معالجتها ، وقد تكون سياسة المال من حيث البذل او المنع وجه من اوجه الحكمة في ذلك .

★ ★ ★

الدّين والأمانة

قال رسول الله ﷺ : (لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له) رواه احمد والبيهقي وابن حبان .

الامانة والعهد ، وصفان متلازمان ، فحيث وجدت الامانة وجد معها الوفاء بالعهد ، وحيث فقد أحدهما فقد معه الوصف الآخر ، وإنما يكون الرجل أميناً اذا كان ذا وفـــاء بعهده وكلامه امام الآخرين ، وإنما يتّسم الرجل بالوفاء بالعهـــد اذا كانت الامانة من مقومات شخصيته .

وكلاهما من اهم الركائز التي لابد منهـــا لشخصية المسلم .

وكلاهما واجب من أهم الواجبات التي تلي رتبة الايمان بالله مباشرة

أما الحكمة من وجوبها وأهميتها في حياة المسلم ، فهي ان الله عز وجل إنما كلف عباده بالايمان به والايمان بما يتبع ذلك من اليقين بيوم الحساب والجنة والنار، من أجل أن تستيقظ أفئدتهم لمراقبته وأن تظل على يقين بانه سبحانه وتعالى يراهم ويحصي عليهم جميع

تصرفاتهم فيحاسبهم عليها، ان خيراً فخير وان شراً فشر، إلا عن حياتهم بذلك على نهج قويم من التناصح والتعاون والبعد عن اسباب الظلم والكيد .

فاذاادعى المرء انه مؤمن بالله ورسوله، وموقن بايمانه باليوم الآخر ثم راح يخون الآخرين او يخدعهم ويخلف في عهوده معهم - فإنما هو متناقض مع نفسه في الحقيقة . اذ لو كان قلبه مستشعراً حقيقة الايمان بالله ، لاستشعر انه يراقبه وانه سيحاسبه على كل ما يقترفه ، فكان ذلك حاجزاً له عن تلك الموبقات.

ان الذي لا يأمنه أخوه المسلم على كلمة يسر بها في أذنه ، او على معاملة يصدق فيها معه ، او على حق او مال استودعه إياه ، او على مشورة يأمل ان يخلص له فيها - ليس صادقاً في ايمانه بالله عز وجل ولا صادقاً في استشعار المخافة منه .

وماذا يفيد الناس ان يتظاهروا امام الله عز وجل بالايمان به ، او ان يلهجوا بالمزيد من ذكره وتسبيحه ، او ان يبالغوا في رفع المآذن الى جو السماء - اذا لم يكن في أفئدتهم من مهابة الله وخشيته ما يحملهم على ان يكونوا أمناء لبعضهم ، صادقين في تعاونهم مخلصين في تضامنهم ؟ .

وهل كانت شرعة الدين من اساسه الا حملا للناس على ان يسيروا في المنهج الصحيح الذي يوفر لهـــم اصدق معاني السعادة للفرد وللمجتمع . فماذا جنى من الدين من اخذ منه الفاظه ثم ابتعد عن حكمته وغايته في الحياة ؟

وما هو مصير المجتمـــع الذي يفقد فيه اهله الامانة وصدق العهد ..؟

إن مصيره أن يصبح أنكاثاً ، تختفي منه الثقة بين افراده فلا يطمئن انسان الى آخر في كلمة يقولها او تجارة يعرضها او حتى موعظة يقدمها .

مصيره ان لا يلتقي عشرة من افراده على تعاون مثمر بناء في سبيل تحقيق شيء من خير الاخرة او الدنيا ، اللهم الا ان يلتقوا على ذلك بضعة ايام ثم يروغ اسرعهم خداعاً وأقواهم كيداً بالمكر على الآخرين، حيث ينتثر جمعهم وقد خزنوا في أفئدتهم بدلا من روح التضامن والوداد أجيج الحقد والبغضاء .

فمن اجل ذلك كانت صفة الامانة وصدق العهد جزءاً لا يتجزأ من صفة الايمان بالله عز وجل . ومن اجل ذلك لم يكن

من سبيل الى ان يتصف الانسان بالامانة والعهد الصادق الا عن طريق الايمان الصادق بالله عز وجل .

إن محمد بن المنكدر رضي الله عنه (وهو التاجر الصدوق في تجارته) لم يكن ليطوف في الاسواق والضواحي بضعة ايام وهو يبحث عن الاعرابي الذي اشترى من عامل له بضاعة باغلى من قيمتها الحقيقية ، لكي يعيد اليه الزيادة التي اخذت منه خطأ ـ لو لم تكن مخافة الله تعالى عامرة في قلبه .

وان الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم ، لم يكونوا ليستريحوا في القضاء بين الناس ، لولا ان الناس الذين كانوا في عهدهم آمنوا بالله حقاً فاستشعروا رقابته عليهم ، فشاع الامن والصدق بسبب ذلك فيما بينهم .

ومن اجل ذلك ليس عجيباً ان يقول رسول الله ﷺ :

(لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) .

● ● ●

الرّفق في الأخذ بأحكام الدّين

•

قال رسول الله ﷺ : (ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى) رواه أحمد من حديث انس والبيهقي من حديث جابر .

يعبر النبي ﷺ بهذا الحديث عن اهم حكم من الاحكام الكلية التي تقوم عليها شرعة الاسلام . فهو يوضح ان عزائم الدين شديدة وكمالاته كثيرة غير متناهية ، فمن أصر على ان يستبق عزائمه كلها ويسرع في نيل كمالاته جميعها ، انقطع به الطريق وانهدت منه القوى ، وربما عاد بسبب ذلك الى شر مما كان عليه . ولذلك كان من الواجب على المسلم ان يأخذ نفسه في احكام الله تعالى بمبدأ التدرج ، وان يروض نفسه على الانسجام مع احكام الشريعة الاسلامية برفق وعلى مهل . ويشبه النبي عليه الصلاة والسلام ذاك الذي اسرع يخترق الطريق الى كمالات الدين وعزائمه بطفرة ومن غير رفق ـ بذاك الذي انبتت به دابتـــه او وسيلة نقله (اي

انقطعت به في منتصف الطريق) فلا هو وصل الى الغاية التي كان يسعى اليها ، ولا هو استبقى وسيلته التي أراد أن يتبلغ بها !

وهذا الحكم الذي هو في حقيقته قانون تربوي عظيم، ينطوي على حكمة ما ينبغي ان تخفى على اي مسلم . فمن المعروف ان التكاليف الاسلامية شاقة على النفس والجسم ، والمطلوب من المسلم ان يروض كلا من نفسه وجسمه عليها حتى يتم نوع من الانسجام والتوافق بينهما ، وليس المطلوب ان يحكم على كل من نفسه وجسمه بعقوبة صارمة تتمثل في تحميله ما لا يطيق ولا يصبر عليه .

اي المطلوب من المسلم في شرعة الاسلام ان يربي نفسه على الانقياد في الطريق الاصلح لهـــا وعلى ائتلاف ذلك الطريق والانس به . وليس المطلوب منه ان يبتليها بكل عنف وضيق لا لشيء الا لان يكيدها بذلك ، فما جاء الاسلام بشيء من هذا وما كلف الله - باجماع علماء المسلمين - احداً من عباده ان يتقرب اليه بشيء من المشقات لذاتها .

ولذلك كان المتوخى في تكليف الله عباده بالمبادىء والاحكام

ان يعودوا انفسهم عليها ويخضعوا حياتهم لنظامها، لما في ذلك من الخير لنفوسهم والسعادة لحياتهم . ومثل هذا لا يتم الا بالتدرج والتمهل ونقل النفس في مدارج الدين خطوة فخطوة بحيث تكون السابقة هي الدافعة لتحقيق التي تليها . وبذلك تتكامل الخطى سليمة ثابتة يشد بعضها من أزر بعض ، لا يخشى معها نكسة الى الوراء او ردة من جراء ضيق غير محتمل ، وخير نموذج لهذا الرفق المتمهل ، التدرج الذي سار عليه التشريع في بدء نزوله.

وفي المسلمين كثير ممن كانوا يجهدون انفسهم اشد الجهد في تحمل عزائم الدين وكمالاته ، ثم ارتدوا فجأة الى حالة اصبحوا يهملون فيها اهم شعائر الاسلام . ولو نظرت ، لرأيت ان سبب ذلك - على الغالب - أنهم لم يكونوا يعودون نفوسهم على احكام الدين تعويداً ولكنهم كانوا يعاقبونها بمشاقه للتعذيب فقط . والنفس قد تخضع لما يصادم طبيعتها وشأنها حيناً من الوقت ولكنها سرعان ما تتمرد مرتدة في اسرع حين الى أسوء من النقطة التي سبقت منها . وعن مثل هذه الحال يقول رسول الله ﷺ (ان هذا الدين يسر ولن يشادّ الدين احد الا غلبه) .

وكم رأينا من معلمين وآباء ، حملوا أبناءهم او تلاميذهم من

أعباء الاسلام وكمالاته ما لا يطيقون ، وظنوا انهم قد نجحوا في ذلك عندما استاقوهم بعصا الرهبـــة والزجر ، ثم تمردوا فجأة وانطلقوا متفلتين لا يلوون على شيء ، فكان شأنهم مع معلميهم كما صور رسول الله ﷺ : كالمنبت الذي لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وكم رأينا من شبان أسهروا لياليهم الى الفجر ركعــاً سجـــداً ، يحملون انفسهم - طفرة واحدة - على سلوك سبيل الواصلين من أولي العزم ، ثم آل أمرهم الى ترك الصلوات المفروضة وارتكاب المحرمات الكبيرة .

غير ان هذا كله لا يعني مشروعية التساهل في القاسم المشترك من الواجبات الاساسية . ان بين التساهل غير المشروع ، والتشدد غير المشروع فارقـــاً كبيراً لا يخفي على من تأمل في طبيعة الاسلام وهديه . وللشيطان بين هذا وذاك جولات يحاول ان يلبس فيها على المسلم الطريق ، فليستعن المسلم على ذلك بقبس من العلم يقيه من لبس الشياطين .

ليس من شأن المسلم ﷺ أن يحقر أخاه

●

قال رسول الله ﷺ : (بحسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم) رواه مسلم في حديث طويل من حديث أبي هريرة

تتضمن هذه الفقرة من حديث رسول الله ﷺ ، النهي الشديد عن ان يحتقر المسلم اخـــاه المسلم باي لون من الوان الاحتقار ولاي سبب من الاسباب . والاحتقار هو الازدراء والاستصغار ، والحقير في الاصل يطلق على الصغير الضئيل ، ثم أريد بـــه ما يشمل الضآلة المادية المحسوسة والضآلة في الاهمية والقيمة . وبهذا تدرك الفرق بـــين النقد المشروع اذا توفرت شروطه وأسبابه والاحتقار غـــير المشروع مهما توفرت له من أسباب وظروف .

ان النقد استدراك على عمل او تصرف غير صحيح او سديد ابتغاء التجنب عنه . اما الاحتقار فهو تهوين واستخفاف بذات الشخص نفسه بقطع النظر عن الملابسات والاعمال .

واذا اتضح الفرق بينهما - وهو فرق قلما يتنبه له كثير من الناس - ادركت الحكمة من النهي الشديد عن احتقار المسلم أياً كان وكيفما كان. ان الاحتقار، بكل مظاهره وأسمائه وأصنافه سلوك تهديمي لا ينطوي على اي خير او تقويم لا للشخص المحتقر خاصة ولا للوضع الاجتماعي عامة، بل هو ينطوي على نقيض ذلك، اذ هو يحمل الى المجتمع بذور الحقد واسباب التصدع والتدابر. ولو كان الذي يحتقر الآخرين يريد بذلك إصلاحاً للفرد او المجتمع، لتلمس ما قد يراه او يشعر به من اخطاء الفكر او السلوك فشذبها وحذر منها بدلا من التعرض للاشخاص بذواتهم، ولوجد فائدة الاصلاح بذلك امراً ميسوراً لا يستعصي على التحقيق.

وأكثر الذين يدأبون على احتقار الآخرين، انما يفعلون ذلك لانهم انما يتلمسون في الناس دائماً النقائص والعيوب بدلا من استشعار ما فيهم من الفضائل والمحاسن. والذي تعود في حياته على هذا السلوك التائه الخطير لا يمكن ان يعجبه من الناس احد، ولا يمكن ان يعالج ما يراه منهم بشيء من الاصلاح او النقد. لان سنة الله في عباده - حاشا الرسل والانبياء - ان يقوم تركيبهم

الانساني على خليط من النقائص والكمالات . وقـــد يتفاوت منسوب كل منهما من شخص الى آخر ، ولكن الخليط في اصله باق بل متأصل في طبيعة الناس جميعاً ، وما هواية البحث عن عيوب الآخرين نفسها الا نموذج من اهم هذه العيوب وأخطرها .

فالذي لا يستطيع الا ان يتبع عورات الناس على اختلافها لا يستطيع اخيراً الا ان يقع في جريمة احتقارهم وازدرائهم ، اذ هو لا يملك ان ينقد عيوبهم جميعها نقداً بناء مصلحاً ، لان ذلك لو تحقق لانقلب الناس كلهم بذلك الى ملائكة معصومين ، وهذا ما لا يمكن ان يكون . فتتحول ـ بسبب ذلك ـ نظرته الانتقادية في عيوبهم الى احتقار ذاتي لاشخاصهم .

وانما الدواء الناجع لمن قد ابتلي بهذا البلاء ، ان يتأمل في ذاته كما يتأمل في ذوات الآخرين ، فسيجد ـ ان كان عاقـــلا منصفاً ـ انه متلبس بنقائص وعيوب لا تقل عن عيوب اولئك الذين يظل يحتقرهم لاجلها ، ثم ليأخذ نفسه باصلاح هذه العيوب فان اعجزتـــه الحيلة عن ذلك ولم يتمكن من تطهير نفسه من النقيصة والعيب ، فليدرك من ذلك انها سنة الخالق في الكون ، جعل النقص طابعاً لا ينفك عن الانسان ، لكي يجد بواسطة

ذلك سبيلا ميسوراً للتواضـــع مع الآخرين ، ولكي يسعه ان يغمض العين عن مثل هذه النقائص اذا رآى شيئاً منها عالقاً بهم .

على ان شريعة الله عز وجل ، لم تدْع الناس بناء على هذا ، الى ان يرضى بعضهم عن انحرافات بعض ! . . بل دعـــاهم الى التعاون على الاصلاح بكلا مظهريه السلبي والايجابي وأمرهم ان يشد بعضهم من أزر بعضهم حتى يرتقوا الى اقرب درجة ممكنة من درجات الكمال . ولكن شتان بين هذا الذي شرعه الله من النقد الصحيح القائم على التعاون والتواصي ، وذاك الذي حرّمه الله من الاحتقار القائم على الغرور والحقد . وعن اولهما يقول رسول الله ﷺ : الدين النصيحة

وعن ثانيهما يقول عليه الصلاة والسلام : بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم .

★ ★ ★

من مظاهر برّ الوالدين

●

قال رسول الله ﷺ : (إن من أبر البر صلة الرجل اهل ود أبيه بعد ان تولّى) رواه مسلم والترمذي وأبو داود من حديث عبد الله بن عمر .

يوضح رسول الله ﷺ في هذا الحديث ، ان من ابرز مظاهر بر الرجل بأبيه ان يكرم ويبر اولئك الذين كانوا موضع اكرام ابيه وحبه عندما كان حياً ، فيصلهم ويحسن اليهم ويحيي سيرة أبيه معهم ، وهو باتفاق الأئمة من افضل القربات الى الله سبحانه وتعالى .

ولهذا البر الذي ندب اليه رسول الله ﷺ اثر اجتماعي كبير، قد لا يتنبه اليه من لم يلتفت الى هذا الحديث ويتأمل فيه وبيان ذلك ان أهم وظيفة كلف الله بها عباده في الارض، هي اقامة وشائج القربى فيما بينهم واقتلاع اسباب الفرقة والبغضاء من

النفوس ، وخير الناس في هذه الدنيا من تركها بعد ان غرس فيها شيئاً من هذه الوشائج ، وشر الناس فيها من ترك فيها وراءه بذور الفتنة والشقاق .

والولد الصالح هو ذاك الذي يتلمس رضى الله عز وجل في بر ابويه ولذا فقد جعله الله تعالى الامين الاول على سعي ابيه وراء جميع مصالحه الدنيوية والاخروية ، سواء في ذلك عهد الحياة وما بعده فالولد على كل حال امتداد للخير الذي استبقاه ابوه من بعده عن طريق ما كلفه الله به من تربيته والمحافظة عليه .

ومن جملة الخير الذي تركه ابوه من بعـــده تلك الصلات الانسانية التي كان قد أقامها بينه وبين اخوانه ، بما يتبعها من تعاون في طريق الخير ، وتناصح في الدين ، وتمكين لواشج الحب في الله عز وجل. ان تآلف عدد من الاخوة المتحابين في الله مساهمة عظيمة جداً في اقامة صرح الاخوة الاسلامية بين عباد الله تعالى في الارض .

واذا كان هذا الوالد قد تولى عن الدنيا الى دار عقباه، وترك من ورائه بناء خيراً جميلا كهذا ، فان ابنه البار امين على هذا البناء من بعد موته . فعليه ـ اتماماً لحق الابوة في عنقه ـ ان

يواصل صحب ابيه من بعده وان يحافظ على ما بينهم من وشيجة الود والقربى ان تزول او تتقطع .

وبذلك تنمو علاقات المحبة والوداد بين الناس وترسخ جذورها ، وتتسع مع الزمن دائرتها ، اذ يحافظ الخلف على ما قد اسسه السلف ويزيد فيه ، ويأتي الخلف الثاني ليفعل مثل ذلك ، وهكذا .. ما دام الجميع متقيدين بهذه الوصية العظمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكم من صلات انسانية جميلة ، قامت بين جماعة من الناس بفضل من سعى بهم الى ذلك ، وظل يغذيها ويربيها طالما هو حي يعيش معهم . فلما مات تفرق جمعهم وانقطع شملهم، اذ لم يخلفه من بعده من يرث هذه الرعاية والمحافظة عليها والاهتمام بها .

ولقد علمت العادات والقوانين صنوفاً من الميراث يرثها الولد من أبيه ، هي الاموال العينية والحقوق القيمية المختلفة ، فهو يخلفه في استثمارها ورعايتها والافادة منها . ولكن شريعة الله عز وجل اضافت اليها ما قد يفوقها في الاهمية والخطورة ، وهو الصلات والوشائج الانسانية التي كان قد نماها المورث في ظل من رعاية

الاسلام وهديه . ان هذا الارث الانساني العظيم ما ينبغي ان يموت بموت مالكه الاول ، وانه اولى ـ في حكم الشارع ـ من العقارات والاموال بالرعاية والاستثمار، وان على الوارث ان يخلف مورثه فيها ، وأن يقدم لها ما تقتضيه من مغرم، ويأخذ ما تقدمه اليه من مغنم .

غير ان هذا القانون الالهي الذي دعا اليه الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعني ان على الولد ان يحافظ على اخلاء ابيه ويخلفه في وداده لهم ، كيفما كانوا ومهما كان الاساس الذي بني عليه ذلك الوداد . بل الامر كله مقيد بما كان قائماً على المنهج الاسلامي الصحيح . ان البر الذي يكلف به الولد تجاه ابيه انما هو بر في غير معصية الله تعالى ، وبره لاهل وده من بعده مقيد بهذا القيد نفسه ، فمن ورث من ابيه ارثاً لم يأته بطريقه الشرعي السليم وجب عليه ان يعيده الى وجهه الصالح السليم ، سواء كان مالا ، او حقاً ، او صحبة وصداقة مع الآخرين .

الدّعاء مخّ العبادة لله

●

قال الله تعالى : (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، ان رحمة الله قريب من المحسنين)

يأمر الله عز وجل عباده في هذه الآية بان يتقربوا اليه بالدعاء بدافعين هما : الخوف من عذابه وبلائه، والطمع في عافيته ونعمائه وقد تكرر هذا الامر كثيراً في كتاب الله تعالى . فهو يقول في آية اخرى « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين» ويقول في صفة طائفة من عباده الصالحين : « انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » . ولذلك تم اجماع العلماء على ان التقرب الى الله بالدعاء هو لب العبودية له ، وهو اهم ما ينبغي ان يصطبـــغ به المسلم من مظاهر الذل لله تعالى .

وليست الحكمة من ذلك ما قد يتصوره البعض من انه

السبيل الذي ينبغي ان يسلكه الانسان لنيل رغائبه والابتعاد عن مخاوفه ،اي فالدعاء في تصورهم ليس اكثر من وسيلة لذلك .
بل الدعاء عبادة مقصودة لذاتها يعلن بها الانسان عن عبوديته وذله لله سبحانه وتعالى سواء تأمل استجابة او لم يتأمل . اذ هو يعلم ان لا ملاذ له غير خالقــه سبحانه وتعالى على اي تقدير وحال ، فلا ملجأ منه الا اليه ولا مفر من بلائه الا الى الامل برحمته ، ولا إله غيره يشكوه اليه او يستعد به عليه او يوسطه له .. إنما هو إله واحد بيده اسعاده وشقاؤه .

وإذاً .. فهل يملك الانسان الا ان يتسربل بأصدق معاني الذل والضراعة لخالقه جل جلاله مهما كانت الحال التي هو فيها ؟.

وهذا هو معنى العبودية لله عز وجل ، وذلك هو قصارى ما خلق الانسان من اجله : أن يعلن لسان حاله وجميع تصرفاته أنه مملوك ذليل لخالق عظيم .

ومن اروع مظاهر الحكم الالهية ، انه سبحانه وتعالى يربي عباده على الاصطباغ بهذه الحقيقة ، بدافعين اثنين : احدهما الامل في رحمته ونعمائه، وثانيهما الخوف من عذابه وبلائه، وإنك لتجد

دلائل كل من هاتين الصفتين في ذاته تعالى متكافئة متعادلة ، لا تغلب بوارق احداهما على الاخرى ،حتى لا يتغلب جانب الامل في رحمة الله تعالى على العبد ، فيترك نفسه لهذا الامل ويتمنى على الله ما ليس له ، وحتى لا يتغلب جانب الخوف من بطشه وبلائه فيمتلكه اليأس ويرهب رهبة يلقي فيها بيديه .

وانما يصلح العبدَ في طريق الاستقامة على العبودية لله عز وجل ان يتجاذبه طرفا الخوف والرجاء ، كجناحي الطائر ، في تكافؤ واعتدال . فمن اجل ذلك لا تجد في القرآن آية رحمة إلا وفي جانبها آية عذاب، ولا تجد الباري سبحانه وتعالى يصف ذاته بصفة من صفات العذاب والرحمة إلا ويصف ذاته الى جانبها بما يقابلها من الصفة الاخرى .

انظر الى قوله تعالى : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم) ، والى قوله عز وجل : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) وكل ما

في القرآن من صفات الرحمة والعذاب لا يأتي الا على هذا النمط من الموازنة التربوية المثلى .

بل ان القرآن لا يصف الذين استحقوا جنة الله وفوزه في دار العقبى الا باعلى صفاتهم ومراتبهم التي كانوا عليها كقوله تعالى: (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالاسحار هم يستغفرون ، وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فاذا تأملت في صفاتهم هذه قلت : انى لي ان اكون في مراتب هؤلاء ؟ .. وعندما يصف الذين استحقوا عقابه لا يصفهم الا بأسوأ اعمالهم كقوله تعالى : (.. لم نكن من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين) فاذا تأملت في صفاتهم هذه قلت : لا ريب أني أحسن حالا منهم. وتنظر في حالك ، واذا انت في منزلة بين حال أولئك وهؤلاء .. فيطوف بك الامل وينتابك الخوف ، ويتولد من تلك الحال حقيقة العبودية لله عز وجل ، ويدعوك ذلك الى ان تبسط كفيك اليه بالضراعة والدعاء .

من آداب

الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عَن المنكر

تخبّط بوطي في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طيلة حياته، لعنة الله عليه.
محمد فهمي الحمدان

قال الله تعالى : (ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْواً بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون)

الحـــكم الذي تتضمنه هذه الآية ، هو النهي عن استثارة اصحاب المنكر ـ باسم الانـكار عليهم ـ الى الوقوع في مضاعفات او منـكرات أخرى ، كأن يسب المؤمن ما يعبده الآخرون من دون الله من اوثان وآلهة اخرى، فيعمد هؤلاء الى سب الله تعالى بدافع من المغايظة والعصبية الجاهلة . فهذه الاستثارة لا تعتبر في حكم الشريعة الاسلامية من قبيل امر بمعروف ولا نهي عن منكر، وانما هي ذريعة الى الوقوع في محرم . وقد امر الله تعالى بسد الذرائع اليها وان بدت في ظاهر الامر وأوله غَيْرة مبرورة على حرمات الله .

والحكمة من ذلك واضحة ، فانما الغاية التي شرع من اجلها مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اشاعة الحق في المجتمع وازالة الباطل عنه بقدر الامكان ، وذلك عن طريق النصيحة لدين الله عز وجل . وانما يتم ذلك ضمن جو من الصفاء النفسي عن الاغراض والاهواء والضغائن ، وباسلوب موضوعي يستهدف مخاطبة الفكر والعقل ولا يتجه الى جرح الشعور والنفس ، وفي وقت لا يخشى فيه من الفضيحة والتشهير .

ففي هذه الحالة وحدها، يشرع مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لعامة المسلمين . اما في الحالات المخالفة الاخرى فان التلبس بذلك لا يعدو ان يكون فتحاً لذريعة الشر في اي شكل من اشكاله ، وهو ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى .

ومن اجل ذلك كانت ضرورة النظر في آداب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد من ضرورة اقتحام الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كيفما كان السبيل ، بل كثيراً ما يكون هذا الاقتحام في حقيقته عند الله تعالى أشد من المنكر الذي يراد ازالته .

ان الذي يفجؤه منكر في طريقه او عند جاره ، فينقض الى

انكاره في غير الحالة والشروط التي اوضحناها ، فيستثير بذلك صاحب المنكر الى الايغال في منكره او الى التمادي فيه ، انما يتولى كبره في الحقيقة ذاك الذي زعم انه سعى الى إنكاره . فيرتكب بسبب ذلك إثم المشاركة فيه بعد ان كان مرجواً له الثواب والاجر على ازالته .

وأهم ما يجب على المسلم ملاحظته في هذا الصدد ، هو التفريق بين الغضب لله تعالى والغيرة لدينه ، والغضب للنفس وحب الانتصار لها . ان كثيراً ممن يريدون انكار المنكر ينساقون الى ذلك بدافع من الانتصار للنفس اكثر من دافع الانتصار لدين الله تعالى ، وهو دافـــع لا يخفى على الطرف الآخر فتكون نتيجته الاستكبار والعناد .

كم من استاذ يرى من بعض تلاميذه منكراً دينيـــاً يجاهر به أمامه ، فيستشيط غضباً ويتميز غيظاً اذ يشعر ان في ذلك جرحاً او اساءة لمركزه الديني المرموق وانه ليس الا تعبيراً عن السخرية به والتهوين من شأنه ، فينحـــط في صاحب ذلك المنكر إيذاء وضرباً وينفذ فيه اعلى درجات الانكار من اجل دين الله .. وهو في الحقيقة انما يفعل ذلك من اجل نفسه ، ويعلم ذلك منه التلميذ فلا يزداد الا بغياً وعناداً .

وكم من ذي مظهر دين يرى في الشارع من يجاهر امامه بالافطار في شهر الصوم مثلا ، فيذهب به الغضب كل مذهب ، إذ لا يشك ان الرجل انما فعل ذلك مغايظـــة لمظهره الديني ، فيفعل كل مـــا يساعده الظرف على فعله . وهو لو لم يكن في هذا المظهر الديني ، وعلم ان صاحب المنكر لم يكن يعنيه في ممارسة منكره ، لما اهتم لذلك ولا التفت اليه .

مثل هذه الدوافع النفسية هي التي تجرف صاحبها الى طريقة غير مشروعية ولا مجدية في الانكار والتعليم ، فتكون بذلك ذريعة الى شر اكبر ومنكر اعظم .

وعلى المسلم الصادق في اسلامه إما ان يسكت في هذه الحال فلا يتلبس بامر يعلم انه غير مخلص لله فيه ، واما ان يعلو عن حظ النفس وأغراضها فيسلك الى ذلك سبيله المنتج المشروع غـــير عابىء بشيء سوى الانتصار لدين الله تعالى .

وهذه الآية – ومثلها كثير في القرآن – هي التي نبهت علماء الشريعة الاسلامية الى أساس تشريعي عظيم هو ما يسمى بمبدأ « سد الذرائع » .

التحلّي بالذّهب

•

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ان رسول ﷺ رآى خاتماً من ذهب في يد رجل ، فنزعه فطرحه ، وقال : يعمد احدكم الى جمرة من نار فيجعلها في يده ؟ . فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ : خذ خاتمك انتفع به ، قال لا والله لا آخذه أبداً ، وقد طرحه رسول الله ﷺ . رواه مسلم

هذا الحديث واحد من الاحاديث الكثيرة الصحيحة التي تدل على حرمة تحلي الرجل بالذهب . ولئن كان هذا الحديث ينص من ذلك على خصوص التختم ، فغيره مثله في الحرمة، اذ الفرق بين التختم وغيره ساقط من الاعتبار ، وليس لخصوص التختم اي اثر في التحريم .

أما المرأة فقد اجمع جمهور العلماء ومنهم الائمة الاربعة على جواز ذلك لها اذا لم يزد على حاجة الزينة عرفاً ، فاذا زاد عليها

ففيه خلاف لبعض الائمة ، وقد روى الترمذي والنسائي في ذلك ان النبي ﷺ قال : أحل الذهب والحرير للاناث من أمتي وحرم على ذكورها . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

ولسنا هنا بعرض التطويل في أدلة هذا الحكم وتفصيل القول فيه .

ولكننا بعرض بيان الحكمة من هذا الحكم الذي اتفق عليه أئمة المسلمين .

فيم حرم الذهب على الرجال ولم يحرم عليهم ما هو أثمن من الذهب كمختلف أنواع الجواهر الاخرى ؟

والجواب ان الله عز وجل جعل الذهب قيمة للمنافع والاعيان في مختلف الازمنة والامكنة ، ومهما تنوعت الاثمان في الظاهر فلا بد أن تعود الى الذهب في الحقيقة . فقد خلقه الله عز وجل لتتداوله الايدي ويكون حاكماً بين الاموال بالعدل، وليتوسل به الناس الى سائر الاشياء الاخرى ، وقد هيأه لذلك أنه عزيز في نفسه ولا غرض لهم في عينه (١)

---

(١) انظر ج ٩١/٤ من احياء علوم الدين للغزالي فقد جاء في هذا البحث بكلام رائع عجيب ! .

فاتجهت جهود الناس كلهم من جراء ذلك الى السعي لحيازة ما امكن من هذه القيمة الذاتية للاشياء ، كل يسعى الى ذلك بما يمكن ان يطرحه في المجتمع من منافع ومقومات مختلفة . وبذلك دارت عجلة التعاون والخدمات الانسانية بين الناس ابتغاء بقاء الحياة ونموها وتطور اسباب العيش فيها .

فكان مقتضى ذلك ان لا يحبس الذهب عن التداول حتى لا يضيق سبل الحصول عليه فيضيق على الناس اسباب معايشهم وانما يكون حبسه عن الناس بواسطة تجميده حلية للزينة او متاعاً من امتعة البيوت او نحو ذلك .

والضرر الذي هو أبلغ من هذا ، ما يترتب عليه من انكسار قلوب الفقراء اذ يرون سبائك الذهب او الفضة في بيوت الاغنياء وقد اقيمت مقام ما يمكن ان يؤديه النحاس او الخزف او نحوهما من حفظ الطعام والشراب ، او اتخذت معالم للزينة المجرودة ، في الوقت الذي يبذل كل منهم غاية جهده وعصارة قوته لنيل جزء يسير منهما من اجل ان يتوسل بهما او باحدهما الى طعام يشبعه او كساء يلبسه او مسكن يؤويه ! .

ومن هنا لم يكن لبقية الجواهر الثمينة الاخرى كاللؤلؤ

والالماس « والبلاتين » ما للذهب والفضة من حكم التحريم ليس شيء من هذه الجواهر قيما للاشياء وأساساً لتبادل المنافع ، ومن ثم فليس في استعماله ما يسبب ذلك المعنى الاليم في قلب الفقير ، وليس له اي مطمع خلال جهده الكسبي للحصول على شيء منه .

وقد ساق الامام الغزالي في هـــذا الصدد قوله الله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهـــا في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ثم قال : وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب او فضة فقد كفر النعمة وكان اسوأ حالا ممن كنز ، لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والاعمال التي يقوم بهـــا أخساء الناس ، والحبس اهون منه (١)

وقد كان من مقتضى هذه الحقيقة ان يحرم استعمال الذهب على الرجال والنساء معاً ، ولكن لما كان الذهب الى جانب ماله من الخصيصة التي ذكرناها مظهراً من ابرز مظاهر الزينة ، وكانت المرأة بفطرتهوطبيعة تكوينهاسبباًمن اسباب متعة الرجل واسعاده

---

(١) احياء علوم لدين : ٤ / ٩٢

لم يكن في تزينها به بالقدر الذي لا يأباه العرف والذوق الانساني ما يخالف القانون الذي ذكرناه وواضح ان هذا المعنى لا يرد في حق الرجل بشكل من الاشكال .

فاذا تجاوزت المرأة في استعمال الذهب حد الزينـــة التي ذكرناها ، استوت هي والرجل في حكم الحظر والتحريم .

* * *

الكاسيات العاريات

●

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : صنفان من اهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . رواه مسلم وأحمد . واللفظ لمسلم .

ينص هذا الحديث على ان صنفين من الناس حق عليهما العذاب في نار جهنم يوم القيامة . اما أحدهما فالحديث عنه مكرر معاد ، وهو صنف معروف يشير بذاته الى نفسه . . صنف من الظلمة يرمز الى ظلمهم سياطهم التي في أيديهم ، وعملهم الذي يذهبون ويجيئون به بين الناس . وليس لنا غرض في الحديث عنهم في هذا المقام .

وأما الصنف الآخر ، فنساء من نوع عجيب ! . . لم يرهم رسول الله ﷺ ولكنه أخبر بهم وأوحي اليه بشأنهم . ان لبسن

الثياب فليزيد ذلك كشفاً عن دقائق الفتنة في أجسامهن . فلسن عاريات لانهن يتجملن بالثياب ، ولسن كاسيات لان كسوتهن أبلغ تعبير مثير عن العري الذي لا تتمتع به العاريات !..

تميل الواحدة منهن الى الرجل بفنها لتُميله اليها بأنوثتها وعريها !. قد أقمن من الشعر المتجمع فوق رؤوسهن سناماً مثل سنام البعير يتأملن به مزيداً من الفتنة او التنبيه !.. يقول رسول الله ﷺ عنهن : لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ! .

أما اعجاز الحديث ، وكشفه عن هذه الخارقة الغيبية التي وصفها رسول الله ﷺ قبل اربعة عشر قرنا من حدوثها ، كما حدثت فعلا ، فليس مجال حديثنا فيه . وقد فرغ الباحثون جميعاً من البحث في عظمة هذا الحديث ومدى دلالته على نبوة رسول الله ﷺ وانه إنما كان ينظر من مشكاة النبوة الى كل ما يحدث او يتطور مع الزمن .

وأما الحكمة من هذا الوعيد الشديد ، فتلك هي مجال بحثنا المختصر في عرض هذا الحديث .

الحكمة من هذا الوعيد ، ان التي تخرج من بيتها على هذا

الحال ، إنما تبذل جميع ما في وسعها لاقناع من يرونها من الرجال بان « زوجة الشارع » (١) خير وأولى من زوجة البيت ، وأنها أتم منها متعة وأفضل منها زوجة !.

فلئن كانت «زوجة الشارع» هذه انما تبرز مفاتنها، وتكشف عن معالم المتعة من جسدها لمجرد العرض والاثارة ، فانه السم بذاته تصبه ناقعاً في حياة كل رجل متزوج مع زوجته او شاب أعزب مع نفسه ، وإنه لاخطر مظهر من مظاهر الكبت الذي يحذر منه المربون والنقاد الاجتماعيون .

ولئن كانت لا تردّ يد لامس يبغي الاستمتاع بها ، فانها النار التي تذيب قوالب الاسرة وتتلف معالمها ، ولا معنى بعدها للحديث عما يسمى بالشرف ، او التباهي بالنسب او التفاخر بالكرامة والعرض .

فهما احتمالان ، لا ثالث لهما . وأحلاهما بلاء هائج مرير !»

---

(١) « زوجة الشارع » تعبير أطلقناه على تلك المرأة التي اذا خرجت الى الشارع تعرت وازينت وتمرغت على طول شارعها كما تتمرغ الزوجة في أحضان زوجها. فاذا عادت الى البيت طوت زينتها واهملت زخرفها وجلست فيه شعثاء لانها في البيت.. وما في حدا غريب !.

ولما كانت شريعة الله عز وجل ، تريد للانسان حياة هانئة تتوفر له فيها طمأنينة قلبه وسكينة نفسه وسعادة عيشه ، في غير مداجاة ولا تصنع ولا نفاق - فقد كانت قائمة في هـــذا الامر الخطير على القانون الإلهي القائل :

(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) الاحزاب : ٥٩

ومن أجل ذلك كانت المرأة اوالفتاة التي تعرض عن هذا القانون الالهي العظيم ، ثم تقتحم المجتمع لتحاربه بسلاح من الاثارة والفتنة والتعري ، انما تهيء نفسها بذلك لاقتحام نار هائلة لا تعرف نار الدنيا مدى هولها وحرارتها ، نار وصفها خالقها بان وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون !.

فيا أيتها الاخت الرشيدة :

إن كنت تؤمنين بوجود الخالق الذي يلزم عباده بهذا القانون وبالنبي الذي أخبر عن هـــذا الصنف من النساء بانهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها - فاحذري معاندة الخالق في القانون الذي

ألزمك به ، ولا ينزعن بك الجمال الموقوت والشهوة الرعناء الى اقتحام مهلكة سرعان ما تندمين على اقتحامها ولن يغنيك الندم اذ ذاك شيئاً. سيذهب الجمال ويترك لك من آثاره شيئاً واحداً : غلاً ثقيلاً تقادين فيه الى النار . أعيذك ان تغضبي رب الارباب وخالق الجنة والنار ، في سبيل ان تشبعي شهوة زائلة او تخضعي للذة فانية . أعيذك ان تجعلي من جسدك المائج العاري مزلقاً تنزلق منه أخلاق الرجال ويضيـــع فيه رشدهم ويقعون منه في وادي الغواية والضلال ، واذا أنت بعد قليل تحملين على ظهرك بين يدي الله عز وجل اوزار جيل من الناس كانوا سعداء باتباع مرضاة الله ، فانقلبوا بسببك اشقياء بما سلكوا من سبيل سخط الله . أعيذك ان تحيلي أجمل نعمة منَّ الله بها عليك ، الى سلاح تضعينه في يد أعداء دين الله تعالى كي يسلكوا به أقرب طريق الى اقتناص خلق الاسلام في شباب المسلمين ، واذا بهم صرح هائل تهاوى وسور غليظ تحطم . أعيذك ان تنخدعي لوسواس جنوني كاذب هو : أن الفتاة الجميلة لا تعثر على الزوج الذي تحلم به إلا على المسرح الذي تتعرى فيه ! . كذب والله من قال لك هذا الكلام. وإذا شئت الدليل فانظري الى الواقع الذي ترين. أنظري تجدين الفتاة المتحصنـــة بستر الاسلام وخلقه أسرع الى

الزواج من سرعة السيل الى منحدره بمقدار ما تجدين الاخرى اقرب الى الضياع أو الشقاء او البوار .

هذا كله إذا كنت تؤمنين بالخالق الذي ألزمك بقانون الستر والاحتشام .

أما اذا كنت لا تؤمنين، فاني أنصحك نصيحة أخ لا يبغي لك إلا الخـــير الذي يبغيه لنفسه : عليك أن تسرعي فتعيدي النظر الى ما تعتقدين ببحث موضوعي متحرر نزيه ، فان خادعاً ما قد خدعك عن الحق ولبّس عليك في أمره وشأنه .

أسرعي لتتنبهي الى الحق الذي خدعوك عنه ، قبل أن يسرع اليك ما ينبهك اليه بعد فوات الاوان ، وزوال الفائدة من التنبه والاعتقاد والايمان .

★ ★ ★



الفهرس

ص	البحث
٥	المقدمة
٧	الايمان بالله وسر ضرورته
١٢	سبيل وحدة المسلمين
١٦	ذكر الله وأثره في حياة الانسان
٢٠	العلم أساس كل سلوك واعتقاد
٢٤	من آداب الاقبال على المساجد
٢٨	لا تقاليد في الاسلام
٣٢	العدل في الكيل والوزن
٣٦	التحقق من الاخبار قبل الاعتماد عليها
٤٠	مفارقة السوء وأهله
٤٤	من آداب الانفاق في سبيل الله
٤٨	النهي عن الاكثار من اليمين
٥٢	أهمية إفشاء السلام

٥٦ في تربية الاولاد
٦٠ العدل في اعطيات الاولاد
٦٤ الدين والامانة
٦٨ الرفق في الاخذ بأحكام الدين
٧٢ ليس من شأن المسلم ان يحقر أخاه
٧٦ من مظاهر بر الوالدين
٨٠ الدعاء مخ العبادة
٨٤ من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٨٨ التحلي بالذهب
٩٢ الكاسيات العاريات





طبع هذا الكتاب بمطابع

دار الوفاء للطباعة والنشر

دمشق - بحصة برانية - هاتف « ٢٢٢٢٥٩ »

صمم غلاف هذا الكتاب

الفنان توفيق حبيب


شباب
النادي الشبابي

مـن أبحـاث هـذا الكتاب

الايمـان بالله وسر ضرورتـه ـ سبـيل وحـدة المسلمين ـ ذكر اللـه وأثره في حيـاة الانسان ـ العـلم أساس كـل سلوك واعتقـاد ـ مفارقة السوء وأهـله ـ العـدل في أعطيـات الاولاد ـ الرفق في الاخـذ بأحكـام الـدين ـ التحـلي بالذهـب ـ الكاسـيات العـاريات .